

اصرة

عروسية النالوتي

تماسّ

تقديم
يوسف صديق

دار الجنوب للنشر - تونس

تماسّ

عيون المعاصرة

عروسية النالوتي

تماسّ

تقديم
يوسف صديق

دار الجنوب للنشر - تونس

لوحة الغلاف للفنان علي رضا

SUD EDITIONS
79 نهج فلسطين - 1002 تونس
الهاتف 782.179 / 785.179
ISBN: 9973-703-53-7

التقديم

ولعلّ الكتابة ليست إلاّ فعل رجولة، حتى وان أنت على الأنوثة كتبت [...] فإذا رُمت أن تتجنب تبعات [هذا الطرح] لك أن تعلن أن لا فرق عندك بين الأنوثة والذكورة، سواء في الكتابة أو في غيرها من الأعمال. لكنّ تحييد المسألة على هذا الشكل يُبقي على الريبة منك، كأن يقول قائل إني لا أهتمّ بالسياسة أو أن يقول إني لست باليمينيّ ولا أنا باليساريّ فيفهم الناس كلهم أنّ المتحدّث من أهل اليمين.

جان فرنسوا ليوطار

(أوائل وثنيّة، ص 213–214)[1].

أوّل خصم تناديه كتابة عروسيّة النّالوتي لتصارعه هو ذلك الفَغْرُ الدّاحس الذي مازال قدرَ اللسان العربيّ المبين، القاصمَ بين سماء النصّ العربيّ المجيد العتيق وبين ربعٍ خالٍ، إلاّ من واحات أشتات، حيث تيهُ النصّ العربي اليوم بحثاً عن ذاته وعن تعريف وافٍ لظمئه ومُقْبل معينه.

لعلّ الإثم الأدهى الذي يقترفه كاتب عربيّ مع نفسه هو أن يترك لأهل الفلسفة أن يقدّموا للقارئ عمله، إذْ لابدّ لهؤلاء أن يُعرضوا عن الشعاب المألوفة في النّقد وأن يستصغروا الحدث الرّوائي أو الهزّة الشّعريّة وجُهد التركيب والصّنعة البلاغيّة وصواب التأثير، إلى السّؤال الأقصى أمام فعل الكتابة ومُنْجَز العمل الإبداعي: أوَ هل في قدرته أن يملأ الناس ويشغل الدّنيا حين قراءته أكثر أو أجمل أو أتمّ ممّا يملأنا السكون به بعد الصخب، أو ممّا يشغلنا به خلاصنا من لغو الكون وسفه الإبتذال ؟

1- Jean François Lyotard: Rudiments païens, Union Générale d'Editions Paris 1977.

لا يمكن لأي عجيبة ممّا يُروى من عجائب الدّهور ولا لنادرة مهما خرقت العادات ولا لأيّ حدث مهما كانت صادقة موجعة أوصاف آلامه، دقيقة دلالاته إلى العذابات والشجون أن يسلب من نظر الفيلسوف القارئ الأفق الذي يتدلّى عند هذا السؤال الأقسى. فتعامُلُ سارتر مع فلوبير أومالآرميه وتعامل هايدغر مع رلكه أوهُلدرلين، أو دولوز مع بروست أو فرويد مع صوفوكليس لم يكن نقدا كما ننقد الدّراهم بأن يُتبيَّنَ في كتابتهم الزّيف من المحض، كلاّ بل ما إن تُنزعَ عن أبواب القلعة مراتيجها فيلاقي المبدعُ إذًا سائلَه حتى يندفعا في عناق والتحام وعراك تنصهر فيه فعلاً أوحداً القراءةُ والكتابةُ في قَسر السّؤال ولدى أنأى أقاصيه.

ما من فائدة، في رأيي، أن ألخّص أمر هذه الرّواية وهو أمر الناس كلّهم وأمر كلّ ابنة أنثى وإن بَعُدَ موطنها في بلاد الأرض وفي أحايين الزمن عن الطريق الواصل بين طيْبة وكولون حيث قادت أنطيغونا أباها أوديب ـ الذي لا يفوتنا أنّه أيضا أخوها من أمّه ـ الزوجة جوكاست ـ بعد أن فقأت عينيه الفاجعةُ وتفتّحت بصيرته تنظر محدّقة في ظُلمة الإنسان السحيقة، فظنت البنت الرّائدة أن النسيان سوف يسبغ عليه من رحمته ويتلقّاه ليلفّه بستره، تماما كما ستجاهد هي بعد ذلك السلطة السياسية لتواري سوأة أخيها بولينيسيوس.

عن غفلة من قلمها، ربّما، قصّت علينا عروسيّة النّالوتي مرّة أخرى ملحمة انطيغونا الساكتة واستحالة ذلك النسيان الهادر الغادر إلى طاقة في التلبيس والتّلاعب بالذاكرة العاقلة، مُحدثا فيها الشّروخ مفكّكاً أمنها بمثخن الفلول وصرير الأرجاع الأبديّة.

ثمّ ما من فائدة في استعراض قدرة عروسيّة النّالوتيّ، التي تذكّرنا بقدرات جورج بيريك وفرانسيس بونج ـ حتى وإن لم تكن الكاتبة ربّما قد قرأت لهما ـ في تحويل صمت الأشياء والهباءات إلى ذبذبة ثم إلى لغط فحياة فاحتجاج فموقف منّا مربكٍ "كهلع الفنجان الخزفي المكنون" أو كـ "نداءات الصخر البعيدة"، وكأنّ النصّ دون أن ينتحر في عفوية "الجثّة اللذيذة" السّوريالية، قد ازورّ عن عادته في تصريف الخبر وتمريره إلى الممكن فأصبح

يغري صلد الكوائن بالسخرية من بني آدم وبالضحك من اعتدادهم بوعيهم ومن علمهم بالأسماء كلّها.

انّ ما شدّني إلى قراءة هذا العمل شَدًّ من يرتدُّ على آثاره قصصا يفتّش عن ذاته هو، هو قتال الكاتبة مع جالوت نصّ عربيّ لم ينتفض بعدُ وقد نُفخ في صور قيامة كلّ النصوص الروائية العالمية الأخرى التي هبّت من سبات الكلاسيكية بُعيد إلتقائنا نحن بـ"زينب" هيكل التي ولدت من فخذ بلزاك... لقد حشرت نصوصهم الروائيّة ونُشرت وحدّدت لها تخوم امبراطورياتها وجغرافيّات أقاليمها وزخرف بساتينها مع جويس وسيلين ومع دوستويفسكي وكافكا ومع موزيل ودوس باسوس وميشيما وهانيريش بول، في حين لبثت الرّواية العربية على مشارف هذه الآخرة الأدبيّة تراودها الفتنة في ان تشدّ الرّحال إلى القارات الجديدة فلا تستطيع إلاّ أن تخلد إلى التقليد والمحاكاة. سُحر الكثير منّا فظنّوا أنّهم قد هاجروا أو هم نجحوا فعلا في الهجرة اليها بزادٍ كفاهمُ أحياناً رغم برد الشمال وبزادٍ يسير أحياناً فلفّقوا لسدّ ما افتقروا إليه، وبدون زادٍ أحياناً عديدة أخرى فهلهلوا واستكانوا إلى دفء النصوص العامرة فكانوا حكاةً لا مبدعين أو هم ناصبوا العداء لما في النصّ العربيّ من فاغر الجرح القاطع بين واقعه ومجده فأنكروه وأنكروا عليه تعنّته في مجالدة البقاء.

يا ليتك يا عروسيّة أعرضت عن البوح بألم النصّ وبقيت عند هذا الجرح ونحن نعرف أنّك لم تهاجري البتّة في تنظيرات النّصوص الغربية، حتّى وإن قرأت حتما أهمّها، ليتك لم تصرّحي هنا وهناك، وكأنك تبرّرين هلع زينبتك أنتِ، بما تنزّ به الرّواية كلّها مجاهرة بما هو أعنف من كلّ بوح مطنب.

ليتك تركت للقارئ روعه حين يركب خيل أمواج جملتك العربية البحت فتنكسر به مرتطمة بمُحال العبارة وتحول به إلى بربرة اللهجة العامّة أو إلى هجين الفرنسيّة، فيتناثر منها زبد جفاء ما تلبث الجملة العربية البحت من جديد أن تبدّده وتواصل تموّجها هدّارة عاتية، حالمة بهجرة إلى آخرة ذاتها هي.

أم حسبت كلّ قرّائك المقبلين في سذاجة وعمه احدى شخصيّاتك -محمود- الذي ظنّ أن "للكتابة منطقا آخر تجوّز لها أن تستلف سُحنة من ذاك

وحكاية تُختلق من مجموع أوهام وأحــلام واستيهامات تتقـاطع مـع نُتـفٍ مـن حكايات النّاس مع النّاس وحكايات الكُتّاب معها ... إلخ"؟

أو لعلّ نوافلك المطنبة في وصفك لصراعــك مـع النـصّ لم تكـن سـوى استراحة لا جدوى لها من لهث هو ايقاع الرواية الحقّ، لا يخرج من فم شخصيّة بعينها بل يتخلّل القول والحركة والأنـين والمحاجّـة والسّـرد والـردود والأسـئلة فيمسك شرود صلاح "ألاّ تكون الكلمة في آخر الأمر هي الّتي صنعتنـا وبعثتنا من سبات طينة هشّة" !!؟ أو يذكّره بالحيرة الدّائمة : "هل نحن حقـاً مـنْ خلـق الكلمة ؟ أم ترى هي التي شكّلت وجودنا فقالتنا.".

وإلاّ كيف يمكن أن تبقـى بيننـا زرقـاء اليمامـة علـى عهدهـا في الرؤيـة الثاقبة ونبقى على عهدنا نسمل لها عينيها كـي نسـترحم النسـيان، إلاّ أن نظـلّ نقرأ في بكائها وفي بكاء خديجة وزينب وانطيغونا حتى يـرث الله الأرض ومـن عليها ؟

يـوسـف الصـدّيـق

الإهــداء

إلى روح والـدتـي

مـواصـلة لـلحديث الذي لـم يـنـقـطـع

تــــــــــماسّ

الــفـصــل الأول

مادت به الأرض لبضعة ثوان، عندما استقرّ بصره على العنوان البارز في الصحيفة اليومية التي اعتاد عبورها والقفز على أهمّ عناوينها صبيحة كلّ يوم، دون كثير اهتمام. تمسك بحافة الكرسي... كذّب العين وأنْسَى ثم عاد ليتمعّن في الأسطر التي تتضخم لحظة ثم تتداخل حروفها وتغيم لتعود ثانية تتمركز أمام ناظريه وقد عاد الوعي إليهما بعد أن استقال لحظة. فاستطاع حينها أن يقرأ الخبر :

زينب حسّان عبد الجبّار تقتل أباها
وتعلن جريمتها
أسباب الجريمة مازالت مجهولة
والأبحاث في شأنها جارية.

قفز محمود من على كرسيّه كالملسوع، فاهتزت أواني القهوة الصباحيّة فوق الطاولة أمامه في قرقعة احتجاج وكأنّ سِلْكا كهربائيا قد اخترق هدءتها، فأثار هلعها الخزفي المكنون. أبعد محمود أوراق الدّرس الذي كان يعده لطلبته حتى لا ينسكب عليها رشيش القهوة. وطفق –وقد أعوزه الفهم ـ يذرع المطبخ جيئة وذهابا، يقرّب الصحيفة من عينيْه، ثم يسارع بإلقائها على الطاولة.

ـ لا يمكن ! ... لا يعقل ! ... لا أصدق ! ... ليست هي...
لا يمكن بأي حال أن تكون هي ! ...

ثم راح يطمئن نفسه: البلاد ملآى بالسميّات، ثم هذه زينب حسان صحيح ولكنها عبد الجبّار أيضا... ولكن... هل أنا عرفت كلّ ألقابها ؟ هل يكون أبوها ... اسمه حسّان... واللّقب عبد الجبار! ؟ لم أعد أدري ... ولكن لا يمكن !... انها سميّة لها ... لا يمكن أن يكون الأمر إلاّ على هذا النحو.

وعاد يلوم نفسه :

ـ يا للغباء ! كيف أمكن لي لحظة أن أوجد علاقة بين هذا الاسم و"زينبي" أنا ؟

وانخرط في ضحك طويل متقطّع، موتور. ثمّ عاد فارتمى بثقله على الكرسيّ وكأنّ جسده قد خلا من كلّ عظامه فجأة. وبقي يهزّ رأسه يمحو ما علق به من سيّء الظنون. وراقت له حينها فكرة أن يطلبها بالهاتف ليضحكا معا من المصادفة الغريبة.

غير أنّه سرعان ما تذكّر أنّها لم تحاول الاتصال به منذ ما يزيد عن الشهر. وأنّه حاول الاتصال بها في المكتب دون جدوى. وقد تعوّد أن يسمع من "سْتَنْدَارْدِيسْت" الجريدة إما أنّها "خرجت" أو انّها "لم تأتِ بعد" أو "يمكن أن تترك رقم هاتفك لتتصل بك".

وكان في كلّ مرّة يصمت ويكتفي بـ "شكرا مِرْسِـي" ويضع السمّاعة في مرارة تبقى تلاصقه كامل اليوم.

قرّر مرارا أن ينتظرها أمام مقرّ الجريدة، وفعل. لكن بلا طائل.

لقد عاد حاجز الصمت بينهما يتكثّف يوما بعد آخر وغدَا اللّقاء مطلبا عسيرا.

بدأ يحسّها تتغيّر... تتراجع... تنسحب. ولا قدرة له على اختراق صمتها ليفهم إيغالها المفاجئ في الغياب.

كان وجع الفقد يعوي بداخله كأفعى برأس ذئب تطبق على صدره وتفرغ أحشاءه إلاّ من الوحشة الضارية التي تقيم في خلاء روحه فيغدو بلا عقل ولا صبر، يضرب في أصقاع نفسه بلا هدًى فلا يقع إلاّ على ذاك الذي لا "أسْبِجِيكَ" له، يَنْسِفُ الأبجدية الأولى التي يكون بها البشر بشرا.

كان يعرف في قرارة نفسه أنّه يستطيع أن يرغمها على اللّقاء لو أراد فعلا... لكن ما الفائدة ؟ إنّه يعرف جيّدا وبلا خداع ممكن، أنَّ اللقاء بينهما سيكون ككل مرّة، ناهشا، داميا، مدمّرا، يضاعف مساحات الوحشة المقيمة ويزيد من عدد الفجوات الآخذة في الإتساع.

أمسك مرّة أخرى بالجريدة وأعاد ـ مرّات ـ قراءة الخبر، واستغرب رغم كلّ شيء أن يكون الإعلان عن الجرائم بهذا الخطّ البارز... خطّ أفعواني يستفزّ بسمْك حجمه عين القارئ استفزازا سافرا. ثمّ ما لبث أن زاد استغرابه عندما تثبّت في ما يحيط بالخبر من قصائد، ومقالات عن معارض الرّسم، وصور بعض نجوم الغناء والمسرح...

وفاجأ محمود نفسه ــ وهو في أوج استعصاء الفهم ــ يهمس لنفسه "يمكن لبعضهم أن يعتبر الجريمة افرازا حتميا لثقافة ما ... هذا إذا ..." ـ وتوقف عن مواصلة الفكرة وقد خجل من نفسه، إذ ضبطها متلبسة بالتفلسف وتفريغ الخواطر الجاهزة في أدق وقت يمرّ به.

فتح نافذة المطبخ المطلّة على الحديقة وعبّأ رئتيه بالهواء البليل... كانت الأشجار باذخة تفيض على الدنيا بخضرتها الرّيّانة. وأوراقها مثقلة بالماء تلتفّ حول عقود اللّيمون المتوهج بصفرة أخّاذة. وحبات البرتقال المشعّة، تحت خيوط الشمس، تنظر نفسها وتنتشي برحيقها في غيبة عن العالم.

كان مهرجان الألوان في الحديقة يقول إنّ السعادة ممكنة وإنَّ الجمال مبذول في سخاء وإنَّ قطوف الودّ دانيّة وإنَّ الأرض بكل ثرائها البهيج لا تبخل على العِباد بكنوزها... فأين العطب إذن ؟ ولِمَ هذا الاحتباس الدائم ؟ وما سبب هذا الضيق المقيم بلا جدوى ؟ ولِمَ يَستكثر البشر الفرحة على أنفسهم فيصرفون بقية الوقت في التكفير عنها بجلد الذات، وتعطيل بهجتها. وكأنّ حقيقة الإنسان الوحيدة هي كدره الصميمي الذي لا يداور.

* * * *

كان قد عرف سعادة أن تكون معه، وأنْ يكون معها... كانت تحبّ دائما أن تجلس قبالة الشرفة العريضة، المطلّة على رؤوس أشجار اللّوز والميموزا البريّة، تتحدّر رويدا رويدا لتُسلم خضرتها إلى زرقة البحر المتلألئ بنثار الفضّة نجوما تتراقص على صفحة الماء، تبترد في أوج الظهيرة.

كان الطقس شديد الحرارة ـ ذلك اليوم ـ ككلّ أيّام شهر أوت من كلّ عام. وكانا قد عادا من جولتهما البحريّة بعد أن تركت جسدها مبذولا للشمس ساعات تفعل فيه فعلها، و"تُبَشْمِطُهُ" على مهل، فتغيّر صفرته الشتائيّة إلى لون برُونْزي قرّرت أقاليم البرد والصقيع هناك أن يكون لونَ الجمال والشهوة المنشود عالميا.

كان كثيرا ما يضحك من حرصها على الشّمس في بلد الشمس. وكانت تغضب قليلا من ممازحاته وتخفي حرجها بِدَفْعَةٍ خفيفة لشعرها إلى الوراء... ثم سرعان ما ترضى وتلين وتدفع إليه بقارورة "الكريم" البلاستيكيّة ليطلي لها ظهرها وقفا الفخذيْن وقد تحوّلت إلى صبية مشاكسة لم تغادر عتبة طفولتها بعدُ.

كانت تزعم وهي مستلقية على بطنها تنظر إلى البحر وتغرس قدميها في الرمل أنَّ السُّمرة المطلوبة تكسبها حصانة ما، فهي عبارة عن ثوب شمسي يقلل من حيائها عندما تكون في ثوب السباحة. فيمكن لها إذن أن تعبر الشاطئ الذي تتدافع فيه العيون بالمرافق لتتمركز كالمَرَاصد تخترق سيوفُ نظراتها كلّ جسد يعبر مِنْ أمامها، لتقيّمه جُملة وتفصيلاً.

عيون كشّافة، تمنحها النّظارات الغامقة حريّة التجوال، لتعرية المارّة تعرِيَةً كاملةً دون شعور بالحرج أو قلةِ الحياءِ.

وكانت دوما تقول: كلٌّ يا عزيزي يتخفّى ويتغطّى بما يستطيع، وكلّ يبتدع الحيل ليعرِّي الآخرين بحثا عن التفاصيل الخفيّة.

كانت زينب في مثل تلك الأوقات تتحدّث... تتحدّث... وتملأ الجوّ بالكلام وقد أسندت ذقنها إلى ذراعيها المشبوكتين أمامها... وكان وهو يمرّر "الكريم" على ظهرها قد فاجأ أصابعه مرارا تتريث في حركتها من حين لآخر وتتملى العلامات الهاربة. فتخترقه تيارات قابضة، مبهمة، عنيفة ... يتفصّد لها الجبين عرقا خفيفا... وينسى في دوامة اللحظة العاصفة أنّه على شاطئ ممتد وممتلئ بأعين آدميّة تدور في محاجرها على الرّمل وتتقافز في كلّ اتجاه تتصيّد حركة مارقة لشبهة متخفية. ولكنّ الإعصار سرعان ما يمرّ، ويعود السطحُ

ليغمر الأعماق. فتستعيد الأصابع نشاطها العصري المتحضّر وكأنَّ شيئا لم يحدث.

كان يخشى أن تتدفّق عليه سيول الشهوة أمام هذا الجسد الذي يدعوه ويلحّ في الدّعوة... ولكن فقط ليتفرّج على جحيمه. لم يفهم مرّة ماذا كانت تريد منه هذه المرأة؟ كانت قد قالت له عندما التقيا بعد سنين: إنّها تحبّ شِعره... وقالت له إنّها تحبّ منزله الصَّيْفي... وقالت له إنّها تحبّ التسكّع معه في أنهج المدن القديمة المنثورة على طول ساحل البحر... وقالت له إنّها تحبّ أناقته ورائحة عطره... وإنّه قد فتح لها عوالم الموسيقى على مصراعيها من مشارق الأرض ومغاربها... وإنّها ممتنّة ... وإنّها تحبّ مكتبته بحديث ما صاغته الأقلام وقديمه. وإنها وإنها... ولكن لم تقل له يوما ما إنّها تحبّه... وبقي ينتظر الاعتراف، والاعتراف لا يأتي...

كانت بعض حركاتها تفضح ميلها الجارف إليه... وبعض حركاتها الأخرى تقول عكس ذلك تماما ...

فلم يستقرّ معها يوما على حقيقة واحدة...

مازال يذكر كيف كانت إذا ابتعد عنها تنصبّ عليه انصبابا وتوقد ما امضَى الأيام في ترويضه من رغبة جامحة في احتضانها والرحيل بها إلى أقاصي الحلم... وكان عندما ينجح في طي المسافات بينهما، تتركه على عتبة الوعد الذي لا يتحقّق واجفا راجفا، مهدور السعي بلا عزاء. فتتنازعه رغبة في البكاء... ورغبة في قدّ اطمئنانها ترميما للجسد الذي تهاوى وتشظى أمامها وهي غافلة عنه، سابحة في عوالمها الخاصّة التي لم تعطه الفرصة يوما ليطلّ على قليل قليلها.

كانت تحدّثه طويلا ولكن لا تقول له شيئا، تنهمر عليه انهمارا ولكن لا يظفر منها بيقين... تدخل معه إلى قلب الزوابع ليجد نفسه في آخر الأمر وحيدا مكدودا، ملقى على شاطئ مهجور وقد اختفت وخلفت له على اللسان مذاق الرمل والغبار.

كانت تقول له: إنّه لم يكن يثير اهتمامها قبل زواجه وإنّـه بعـد زواجـه أصبح يمارس عليها جاذبية لا تعرف كيف تفسّرها. كانت تقول له: هناك شيئ فيك ليس لك قد اختلط بما لك فعدّلك، فاستقمت.. فإذا أنـت شـيء آخـر... كان لا يفهم شيئا مما كانت تقول ويكتفي بالاستماع والاستغراب... وكـانت في بعض الأحايين تقترب منه، تتشمّمه وتغمض عينيها وكأنّها تطـارد شميمـا لا علاقة له بجسده، يحوّم حوله ولا يستقرّ فيه... لقد خيّل إليه في بعـض الحـالات أنّه ينشطر أمامها إلى كيان صلب وآخر شعاعيّ... وحدها كانت قـادرة علـى تحسّسه والتقاطه، وكان بودّه آنذاك أن يحلّ كيانه الشعاعيّ هذا في جسده حتى تقترب منه وتلامسه ملامسة الإنسي للإنسي. كـانت عندمـا تتمشّـى بـأطراف الأنامل على مساحة جلدته، تتهـاوى فيـه الكواكـب والمجرّات ويهجـره لحمـه وعظمه ويتخفّف من ثقله ليغْدُو مهرجانا غريبا من الضوء والألـوان تتوالـد مـن بعضها البعض في إيقاع سريع يصيبه بدوار لذيذ يتذرّر فيه من فرط النشوة الـتي تصل حدود عدم الكُنْهِ والاحتمال... فيمدّ ذراعيه نحوها لاحتضانها والتشـكّل فيها من جديد فإذا هـي وهـم يتسـلل مـن بـين أصابعـه، يصعـد بـه إلى عتبـات السماء لِيتركه يهوي وحده إلى القـاع السـحيق الـذي لا قـرار لـه... فتتقلّـص الأوساع فجأة، ويخفت النبض وتنخطف النشوة انخطافا سريعا، ينهدّ له الجسد فإذا هو ركام من عظام ولا جـدوى. كـانت تعـرف كيـف تنشـب في جرحـه الدّائم أظافرها المديدة بابتسامة مكتومة وتقـول وكأنّهـا لا تقـول: غريـب هـذا النداء الذي يحوّل العالم عن مداره في لحظة وفي نفس اللحظة يُعيـده إلى سـالف صمته وانخراسه وصممه !

كانت أنفاسه تتردّد حذو أنفاسها وكان يحـس بـاختلاف الإيقـاع عـن الإيقاع... وكان يسمع داخله بكاء اليتيم يفقد للتوّ أمّـه وهـو مـايزال يُمسـك بحلمة ثديها... وكان يعرف أيضا أنّه محكوم عليْـه بـالتقدم والتعثّر في الشـعاب دونها.

إنّه يعرف أنّها هنا ولكنّها هنـاك أيضـا، تحتفـل بشـيء منـه قـد استقلّ عنه... ليَستقرّ في صخب الهدير المتواصل الذي لم يعد له دخل فيه.

بهجتها تبتدئ من حيث ينتهي البذل...، وتستمرّ دونه في اكتفاء مترع كان يسبّب له حزنا وشعورا بالفراغ من المعنى...

وكان لا يفهم لِمَ يؤمها بكلّ ما يملك فتستقبله، لتستقلّ به عنه، فيبقى إلى جوارها كالجورب المنزوع لا شكل له ولا كثافة.

كم حرص شديدا ليعرف فعل وجوده فيها فكان ألق العينيْن الطافحتيْن بقرير الرضا يفحمه وكان انسياب نظرتها فيه وحوله يعزيه لحظة، ولحظات لا يُعزّيه... لأنه كان يَحْدِسُ في شيء من الإبهام أنها بداية من ذلك الآن قد شرعت تستغني عنه... وتستعصي على فهمه وتنغلق على مَكْنونِ السرِّ الذي لا يملك له سَبْرا.

*****

عادت أشجار البرتقال تتوهج أمام ناظريْه... وألحّ عليه هاجس رؤيتها إلحاحا شبيها بالحمّى.

كان وهو يخترق طرق العاصمة الملتوية، موزّعا بين جموح الرّغبة إلى رؤيتها مرّة أخرى وبيْن تصميمه القديم على نسيانها وإفراغ أعصابه منها.

لم يحدث له أن لبسته أنثى بهذا الشكل "فيستلبس" ويفقد القدرة على منع ركبتيه من الارتعاش ولونه من الانخطاف وشرايينه من الضغط على قفص الصدر، وجلده من التقلّص إلى حدّ ينسى فيه أنّ لجسده حدودا وكثافة وعظاما يستند إليها اللحم.

لم يشعر كيف خرج من متاهة العاصمة وكأنّ إنسانا آخر كان يسوق السيارة عوضه. كان بودّه أن يصل إلى بيته الصيْفي هناك على الربوة العتيدة، تخلّصا من قبضتها العاتية التي فاجأته كنوبة الصّرع... وكأنّه وهو ينشد بيْته ويسرع السيْر إليه سيلتقي بها هناك، فيرتمي بين ذراعيها ويملأ رئتيه بعبق رائحتها فتزول بقربها وحشة النأي عنها.

لم يكن مسطولا بل كان يعلم بشكل موجع أنّها ليْست هناك، وأنَّ البيت مقفل ومفاتيحه معه لكنّه كان يحسّ أنَّ ذلك المكان هو الوحيد الذي يستطيع اللجوء إليه هربا من نفسه أو التقاء بها.

كانت الأزقة الملتوية، المؤدّية إلى البيت خالية من المارّة على عكس عادتها، فالناس منصرفون إلى متابعة وقائع الحرب العجيبة التي أُلجمت الأدمغة وأفحمت الألسنة وغدا النّاس لا يعرفون إن كانوا يشهدون هولا حقيقيا يلتهم المدن والقرى ويطْحَنُها طحنا أم فلمًا جديدا من أفلام الرّعب الخيالية التي تمطرهم بها شاشات "العالم المستنير"...

دلف محمود إلى البهو الصغير فاستقبلته رائحة الرطوبة المقيمة. لم يدخل البيت منذ آخر لقاء له معها... كانت تملأ المكان بحركتها وتعمّره بوجودها وصوتها وضحكها وخصامها. وتؤثثه في الحين بأشيائها الصغرى... وتعلن للحظتها، ملكيتها للمكان وصاحب المكان.

فبقدر ما كانت تحرص على وسم المكان برائحتها وهي فيه، كانت تحرص على جمع كلّ أشيائها وهي تغادره... كانت سخية بوجودها وضنينة بعلاماته.

تقدّم محمود وهو يتفحّص المكان نحو النوافذ يفتحها فانهمر ضياء كالشلال دافقا إلى الدّاخل فاستفاقت ذرّات الغبار وذهبت في حركة مجنونة تتراكض حول خيوط الشمس المستلقية على أرضية القاعة.

ألقى نظرة سريعة على الأريكة ـ أريكتهما ـ وتوقف لحظة ثم جلس في المكان الذي كان قد تعوّد أنْ يجلس فيه إلى جنبها، ولكنه سرعان ما هبَّ واقفا... كانت حشيّة الأريكة باردة وصلبة. قصد المطبخ، علّه يجد أثرا لمشروب كانا قد تناولاه... أو فوضى كؤوس وصحون وملاعق شهدت لقاءهما الأخير... لكنّه لم يعثر على شيء يذكّره بما مضى... كلّ شيء في مكانه صامت... جامد... وكأن لا دخل له فيما يحدث. عنّت له فكرة أن يجهّز لنفسه قهوة... لكنّه عدل عن ذلك. قصد قاعة الجلوس فلم يحلُ له مكان يجلس فيه. ضغط على زرّ جهاز التلفزة فإذا هو ملفّ حرب الخليج مرّة أخرى

مع خبراء آخرين يتجادلون في الأسباب والمسبّبات والدّوافع والتبريرات وراهن الحرب وآفاق الغُنم واستبداد العرب وانفتاح الغرب ورهان النفط وحق البشر في العيش الرّغد...

عوالم تسقط، وبناء يخرّ، ومدن تقام وأنوار تخبو وأخرى تشع، وطير أبابيل، ومقامع من حديد، ونار ودخان... و"ألا لا يجْهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلين". حديث وأحداث واللحم البشري يصلى على نار موقدة.

أغلق الجهاز، فغمر الصمت الغرفة وبقيت أصداء اللغط تطنّ في أذنيه...

خرج إلى الشرفة يبحث عن أصوات الكائنات الصغيرة الطّائرة وهسيس الموج المتكسّر على أسنّة الصّخر علّه يلاقي فيها أُنْسا مفقودا. لكنه لم يجد في ما سمع من أليف الأصوات ما يطفئ جوعه بل كانت تنكأ جرحه بما علق بها من روائح الأماسي السعيدة التي عرف فيها ما معنى أن يتسع الصدر ليحضن الدنيا بأسرها وما معنى أن تتسع الرئتان لتخزن عطور العالم وأريج الأرض بكل أحمالها، وأن تسري في البدن قشعريرة اللذّة النادرة فتتوهّج الحواس وتزدهر المشاعر، وتَيْنَعُ في القلب نبتات الفرح العارم وينفجر الجمال من كلّ ثقب في الأرض، فتتسع النفس إلى حدّ لا يدرك.

استدار محمود إلى وسط الغرفة وأسند ظهره إلى سياج الشرفة الخشبي الأزرق. وتسارعت دقات قلبه وهو يستعيد لحظات خاطفة ليست من متع هذه الأرض، لحظات ممنوحة من أوساع زمنية أخرى تستعصي على أي قياس... وكان يدري وهو يعيشها معها أنّها هاربة هاربة لا محالة... وكأنّ النشوة التي تمنحه إيّاها متأتية من استحالة دوامها بالذّات.

وسأل نفسه : ولِمَ كلّ هذا الإصرار على الإمساك بها ؟ ... لِمَ كلّ هذا الوجع حين لا ألقاها ؟ وماذا أقول للمرأة التي تقاسمني حياتي ؟ كيف أشرح لها حالة الضجر التي تصيبني كلّما اقتربت منّي؟ ... كيف أوصل لها رغبتي في أن تتنحّى عن طريقي... وتتركني أعيش وحدي جنّتي الجهنمية ؟ كيف أفسّر لها

أنَّ صوتها يوتر أعصابي وأنَّ مشاغلها تقرفني، وأنَّ عطرها يصيبني بالغثيان، وأنَّ وجودها في حياتي خطأ فادح وأنَّ جهلها لمقامها عندي الآن هو أكثر فداحة.

وفكّر في غضب : زينب تعرف كلّ ما حــدث ويحدث وتحدس بحسّ الأنثى كلّ ذلك... وكلّ ذلك لا يعنيها... فقط يهمّها الآن أن تزيح عن عالمي الأنثى الأخرى. الأنثى التي أنجبت... وأنثاي هذه لا أقبل من يساومني فيها ولا زينب نفسها. ثم زفر وهو يحاول منع صدره من الانفجار.

لمَ نُجبر دوما على الإختيار الصعب ؟

قفز محمود إلى وسط الغرفة وأخــذ يذرعهـا جيئـة وذهابا. وأحـسّ أنّـه حانق على زينب بشكل مفاجئ : من هــي حقيقـةً ؟ ومـاذا تريـد منّـي ؟ ومـن الذي أوقفها في طريقي ؟ كأنّها قدر لعوب يترصّدني ! هل تحبّني ؟ هـل أحبّتْـني مرّة ؟ ماذا تريد ؟ هلاكي؟ وبعد؟ وبماذا ستستفيد والعالم يعــجّ بالرّجـال الذيـن يشبهونني ؟ عن أي متعة تبحث إذا كان الحــبّ لا يطفـئ النـار الـتي تتـأجّج في نفسها ؟؟.

كان بودّه أن يطلبها في الهــاتف ولكنّـه كـان يخـاف أن يسـمع صوتهـا ويخاف أكثر أن لا يسمعه.

كان يعرف شرطها المجحف. وكـان يعـرف أنـه لا يقـدر عليـه. وكـان يعرف أيضا أنّها قد حدست كلّ ذلك. وأنّها الآن تنتشي وحدهـا بطعـم اللـذة المستحيلة.

تهاوى على الأريكة وفتح جهاز التلفــزة لينحشر مـع ضحايـا الدّمـار، وجرحى الحرب. فجرحــه بعـض مـن جراحهـم، وعويلـه الصـامت بعـض مـن عويلهم... كلّ يبكي من فَقَد. ويصوغ ألمه بالشكل الذي يقـدر عليـه. ويسـأل لَمَ ؟ ولا أحد يجيب.

تــــــمــــــــاسّ

الفصل الثاني

سِـرَادُ لـفـلـول الـذاكــرة

- I -

كان باب الحديقة الحديـدي المخـرَّم منفرجـا، تنبسـط مـن ورائـه باحـة واسعة مفروشة بنثار الجليز الملوّن المصقول. وتنتشـر علـى حوافّـه جـرار مختلفـة الأشكال والأحجام يطغى عليْها لون التراب الأحمر المصهود، تتدلّى من أعناقهـا سوابق نَبْتَات بريّة، مهرّبة من جبال الشمال وسهول الجنوب.

على شمال الباحـة ويمينهـا تنتصـب أشـجار القـوارص تبـاهي بخضرتهـا الدّاكنة، وتظلّل الممرّات الصغيرة الضيقة وتنثر عليْها عِطْرها الأبيض.

كلّ شيء كان يوحـي بالسـكون والرّهبـة، أمـام قامـات شـجر السَّـرْوِ السامق المصطفّ كحرّاس الثكنات على طول سور الحديقة.

• دفعت الباب برفق وتثبّتَتْ من موطئ قدميْها، وكأنّها كـانت تتوقّـع أن تميد بها الباحة فجأة فتسقط لِيُغمى عليها.

كان الباب الخشبيّ البنيُّ ضخما تكسوه نقوش هندسـيّة الشـكل، بـارزة في صرامة ناهرة تعطّل تلقّاء النفس.

راودها في تلك اللحظة بالذاتِ خـاطر الهرب وألحّ عليْهـا وهـي تخطـو خطواتها الأولى نحو البـاب الصـارم. كـان وجيـب قلبهـا يكـاد يفرقـع صمـت المكان.

توقفت. ثم سحبت نفسا طويلا وخز رئتها اليُمنـى، ومـرّرت أصابعهـا في مسالك شعرها المشوّش الأهـوج بشـكل مصفّـف مـدروس، صاغتـه أصـابع ماهرة خبيرة.

وتحسّست وجهها وكأنّها تريد أن تتأكّد أنّه لم يتحوّل عن مكانـه. ثـمّ دسّت قبضتها في جيب سترتها الواسـعة وضغطـت علـى زر الجـرس الدّاخلـي:

كانت الصور المتراكبة تتلاحق، تتسارع، تتراكض، تتزامن، تتقاطع. ورائحة زاحفة من أغوار الماضي تسدّ مجاري التنفّس وتعطّل حركة الزّمن.

تبَعْثَر كلّ شيء فيها وحولها عندما رفعت ذراعها لتلمس زرّ الناقوس... فتراخى الساعد. ووجدت نفسها تهرّب كفّها وتحشرها في آخر نقطة من مساحة جيب السّتْرة.

سمعت وقع خطى وراء الباب فغام كلّ شيء أمامها: واختفى الباب وامحت أشكاله وتبخّر البناء تاركا وراءه ضبابة صفراء زعفرانيّة، ترجُم كثافَتَها شُهبٌ مستديرة مذَنَّبة، تتمطط وتتقلّص، تصل منتهى تلوّنها وتألّقها ثمّ تنفلق كفقاقيع الصابون تحت وهج الشمس.

كانت تلال الرّمل التي نجمت حولها حَادّة المنْحنَى، مفَضَّنةَ الإهاب، عالية القمم... تلال تتلوها تلال تصطفّ على مدى النظر تعكسها مرايا نورانيّة لا ترى.

كانت رجلاها تغوصان في الرمل، كلّما رامت تحرّكا وكانت حبّات الرّمل تتداعى على حبّاته تجرف الرجليْن إلى الوراء فتنكفئ على وجهها وتغرز أظافر أصابعها العشر في عميم الرمل فيتفتت النسيج ويتسلّل من بين الأصابع الموتورة ويغوص الوجه أكثر في الرّمل المزجّج.

كانت تفتح فمها بحثا عن الهواء فيتساقط الرّمل زاحفا إلى تجاويف الفم، يسدّ الحلق، والأنف في خفق متلاحق، يستجدي الرّحمة والرّحمة لا تأتي.

فكرت: - أين خلّفت الطريق؟ وفي أيّ اتجاه أسير ؟ وما للشمس قد تحوّلت إلى بركان مقلوب على رأسه، تنسكب حِممه الحارقة على دِماغِي ؟

كانت تدرك أنّ النهايات هي التي تكون بهذه الغرابة والبشاعة. فأسلمت جسمها، للخَدَر المفاجئ، وقد تراخت كلّ عضلاتها.

كان كلّ شيء فيها قد همد ما عدا العينان. فقد حرصت على فَتْحهما. كانت تريد أن تشهد أندفانها صاحية... وكانت لا تنتظر غوثا... فلا أحد يعرف الطريق إليْها. وصوتها قد ضاع بيْن أكداس الرّمل. وأحسّت بتفكّك كلّ

الروابط. لا شيء يشدّها إلى العالم... وبدأت قناعة الرحيل تسكن وعيها. وصورة العالم المثقلة بالمشاغل والهموم وأفراح الحياة تتبخّر وتغيم... لتتلاشى تدريجيًّا.

قالت لنفسها: "غريب: أيكون توديع الحياة أسهل من استقبالها ؟ لا أحد قال لي ذلك من قبل.

بدأت بعض حبّات الرمل تزحف على جسدها فتحدث فيه دغدغة شبيهة بدبيب النّمل على جلد جَلدته الشّمس، وأحست هبوب بعض الحصيّات على صفحة عينْيها المفتوحتين فأسدلت أهدابها بسرعة: كان الألم داميا لا يحتمل تقلّصت له عضلات جسمها فانتفضت تبحث حولها عن نفسها وفركت عينْيها فاشتعل الألم. وجعلت تدور، تدور حول نفسها في التفافات مجنونة فاقدة لكلّ اتجاه، واقتلعت نفسها من دوّامة الرمل المتحرّك وأرغمتها انقباضات الأحشاء على القيء... فانقذفت سيول الرمل من حلقها واحتقن الوجه وعادت أجنحة الأنف تخفق من جديد، تستنجد بمخزون هواء الرّئتين المضغوط.

كان الضّغط شديدا، جعلها تجري ... تجري تطفو وتغوص وكأنّها تمسك بشهب سيّارة ترفعها لحظة لتسقط معها في مهاوي بلا قرار.

أمسكت زينب عبد الجبّار برأسها من الخلف وشدّت بعنف على أجمة شعرها تكاد تقتلعه. كانت تريد أن تقاوم هذا الخدر الغريب الذي سرى في كامل أوصالها. فحوّل البدن إلى كومة من القطن المنفوش. لا هيكل له ولا شكل ولا هويّة.

واستغربت : كيف تسقط منّا الهويّة هكذا دفعة واحدة ؟! كأن لم يكن للإنسان دخل مرير في نحتها وصقل نتوءاتها وتعبئة فراغاتها المجحفة والوقوف على شكوكها وانتصاباتها في وجه الشكّ والالتباس.

كيف يضيع من الإنسان أمنُه ؟ وتفرّ منه سكينته التي تربّت على يديه منذ إعلانه البدئي عن حلوله في هذه الدّنيا ؟ أمعقول أن تعصف بعض اللحظات الهادرة بنا بهذا الشكل فتهزّ ما أطلنا الوقت في إقامته ومدّه جسرا بين ريبتنا الصميمية واليقين المتزأبق على ضفّة معتّمة التخوم ؟! وقطعت بسرعة خيط تساؤلاتها وعدّلت هيئة ظهرها.

أنا هي أنا: زينب عبد الجبّار، حصيلة الهزائم القديمة التي كانت حين لم أكن. ومشروع الأحلام اليقِظَة المتوثبة التي أعيش ولمّا ألَمَسْ!

أنا في الآن والهنا ثابتة على أرض صخرية مُنْبسطة منفتحة على الأزرق الأبدي العامر بالضوء والذكريات.

أنا زينب عبد الجبّار سليلة الغرف الجبلية المعلّقة بين الأرض والسماء، تلك الغرف المفتوحة على الدّهشة الأولى التي لم تزل.

أجدادي لم ينزلوا إلى السهول إلاّ للرّعي. علّمتهم الجبال كيف يؤاخي الصخر الإنسان وكيف يصلب العود وتتصلّب الملامح.

للصخر همسه. للصخر هلوساته، للصخر نداءاته البعيدة، المدوّية في الفضاءات السحيقة الفارغة إلاّ من الذّكرى وحكايات الإنسان الذي كان هنا من زمن ثمَّ عبر وترك شرط الوجود والعلامة.

أنا هنا. وجود وعلامة وهوية أستند إلى يقيني كما تعلّمت الصخور أن تستند إلى الجبال النافية للهزيمة.

فكيف يحدث لليقين أن يتبعثر أمام باب خشبي مُصْمَتٍ... هكذا بلا مبرّر ؟!

ثم من أطال هذا الباب الخشبيّ أمامي ؟ ومن شحنه بمبيدات الأمن في النفس ؟ ومدمّرات الثبات فيها ؟ فأنا زينب ! جرس معهود لشجرة عتيدة. لم تجاملني الحياة و لم تحد العواصف عن طريقي. التقيتها، التقتني، نظرتها، نظرتني فتعارفنا وأطلنا التعارف في السكر والصحو، في الغيبة والحضور.

لا شيء الآن يمكن أن يفاجئني.

* * * *

انفتح الباب بحركة صائتة ومفاجئة

ـ صلاح ! قالت في دهشة مكتومة.

ـ أهلا. زينب... كدت أن لا أصدق أنّك فعلا ستأتين.

وترنّح الجأش وأحست ارتعاشِ أصابعها وهي تصافحه.

وتردّد صوت آخر داخلها: تذكّري !... هذا رجل أنهيْت معه كلّ توقّع. رجل قد أستقلَّ بحياته عنك منذ سنين.

زينب عبد الجبّار حذار من أحابيل القلب والذاكرة !

أغلق صلاح الباب الثقيل وراءها بعدما دلفت إلى الدّاخل. توقفت لحظة. كان الممرّ أمامها واسعا وممتلئا بالضوء تتوزّع على جدرانه لوحات زيْتيّة هادئة الألوان لا أطر لها سوى ما أحاط بها من مشدّات معدنية لامعة بينما امتلأت الأركان بمحابس النبتات المتسلّقة لمساحات الجدران والممتدة على بؤرات الضوء تتقاطع لتشكل تخاريم متداخلة الأشكال.

وعلى اليمين، قريبا من المدخل الرئيسي، قاعة استقبال عصرية يبدو أنه وقع تشبيبها حديثا: فصالتها من أحدث ما في سوق الأثاث المشخْصَن... لا تصنع إلا حسب الطلب بلمسة مميِّزة من صاحبها. مقاعدها المنجّدة تتبعثر هنا وهناك حسب نسق يكسر السيمترية القديمة للترتيب الدّاخلي للبيوت. وفي الأركان بعض الانبعاجات الغائرة في الجدار على شاكلة اللمسات الاولى للإنسان البدائي... تبدو في توزيعها كالمحارات تنفتح على دررها... ودررها هنا تحف ثمينة تبدو مبعثرة بإهمال شديد العناية. كلّ شيء يوحي للوهلة الأولى بالمهارة والذوق الفنّي الرفيع. على أرضية الصالون تتوزع الزرابي البربرية العتيدة تحدّد تقاطعات الفضاء، وألوان الأرائك هادئة تتناغم مع ألوان الستائر البهيجة فتجعل من المكان مهرجانا من الألوان والأشكال، ترتاح إليه النفس وتشتاق السكن إليه. حيثما التفتَّ تحس أنّك في عالم خاص مستقلّ يوقظ فضولك ويدعوك إلى حميم أسراره. كانت القاعة رحبة وعامرة ومشعّة بنبض الشمس المتدفّق على زجاج النوافذ العريضة.

لم تستطع زينب أن تكتم انبهارها وقالت في نفسها :

- وراء هذه الهندسة وهذا التوزيع وهذا التزويق حِسّ فنّي لا يخطئه الحدس".

وأحست بلا مبرّر واضح وخزة صغيرة في حنب قلبها

كانت تبتسم لتخفي حرجها. تقدّمها صلاح واقترح عليها أن تجلس في الزاوية التي يحبّذ الجلوس فيها أكثر.

ـ هنا. أحسن وأدفأ. والشرفة تطلّ على مساحات خضراء مريحة للنظر.

قال ذلك وأجلسها إلى جانبه. فوجدت نفسها تتمتم:

ـ شكرا ... زوايا القاعة كلّها رائعة ! كنت أعرف أنّك تشكل البناءات على الورق بشكل رائع. لكني لم أكن أدري أنّك تحسن الترتيب الدّاخلي للأثاث والأشياء.

ابتسم صلاح في محاولة لدفع الاحراج الذي سببه له الإطراء المفاجئ... وقال:

ـ في الحقيقة أنا لا فضل لي في هذا الترتيب الدّاخلي "ليليان" هي المعنية به.

كانت تعرف أنّه قد ارتبط منذ سنين بتلك المرأة التي تزوّجها عندما استقرّ رأيهما على الإنجاب.. لقد وصلتها أخباره دون أن تطلب ذلك. و لم يكن ذلك قد استوقفها ولو للحظة وجيزة.

لكنّها الآن وهي تسمعه يسمّيها استغربت الضيق الذي ألمّ بها فجأة. وتفطّنت للصمت المباغت الذي خيّم عليهما، فتشاغلت بالتقاط مجلّة أنيقة كانت فوق المنضدة وفتحتها لتتلهّى بصورها في انتظار أن يهدأ التوتر المفاجئ الذي سرى في شبكات أعصابها.

و لم تنتبه إليه وهو يدعوها :

ـ قهوة ؟ قهوة ؟ أم ...

فوجدت نفسها تقطع دعوته:

ـ لا. لا داعي للإزعاج.

ـ لابدّ. أيّ شيء تريدين ؟

ـ إذن. قهوة كالعادة.

"كالعادة" -- ردّدت الكلمة داخل رأسها واستغربت لاستعمالها: أيّة عادة ؟ أحست أنَّ صخرة ما قد تدحرجت من أعالي سباسبها محدثة دويا محرجا فأرادت كتم الحرج وابتسمت له وهي تعتذر :

ـ أنا متعوّدة على شرب القهوة في الصباح !

فردّ عليها في تخابث حبيب:

ـ يعني أنّك لم تتغيّري... لم تغيّري عاداتك. كم أحسدك على ذلك.

وفكّرت : يحسدني ؟! على ماذا ؟ ماذا يعرف عن حياتي الآن وعن عاداتي ؟ ... غريب حسده لحياة يجهل عنها كلّ شيء... "ما حْسدْناهُمْشِي على غْنَاهُم" ... على كل لا يهمّ ...

تقدّم صلاح منها بطبق فضّي فيه فنجانان أبيضان من خزف ليموج الفاخر وآنية زجاجية عريضة تفوح منها رائحة القهوة الصافية المضغوطة وتطفو على صفحتها رغوة بنيّة مزدهرة، تغري بالنظر وعميق التشمم.

قدّم إليها صلاح فنجانها في صُحَيْنه المنبسط.

ـ قطعة أم اثنتان من السكر...

ـ واحدة... واحدة فقط. شكرا.

أخذت تدير الملعقة الدقيقة في الفنجان ثم رفعت الفنجان إلى شفتيها وأبقته لحظة مضغوطا إلى ذقنها واسترقت النظر إليه حين أنهمك في سكب القهوة في فنجانه ولاحظت لنفسها: "نفس الملامح مع شيء من التجاعيد الطفيفة على الجبين وشعيرات بيضاء على الصدغين، ونفس النظرة الثاقبة العميقة الساخرة مع شيء من الانكسار الخفيّ يتمدّد عبر باقة التجاعيد المحيطة بالعينين. مازالت الشفتان منطبقتين بنفس الاصرار الذي عهدته فيه سابقا إلاّ أنّه أصرار سرعان ما يزول عندما يفترّ الفم بجميل الابتسام.

كانت ترتجف من الدّاخل كورقة أثقلتها قطرات المطر وأحسّت بالرجفة تنتقل إلى أصابعها فارتعد الفنجان فسارعت بحطّه على المنضدة لتتخلّص منه حتى لا يظهر هذا الاضطراب الذي باغتَها في أوج تصميمها على الثقة والثبات "ماذا حدث"؟ تساءلت. "ولماذا كلّ هذه الغُصّة في الحلق ؟" ولِمَ

هذه الصعوبة في إخراج الكلمة العصيّة ؟ أنا جئت أساسا لأتحدّث إليه. لأسأله. لأجعله يحدّثني عن ديوان شعره الجديد. "فلول الذاكرة".

كانت تدرك بشكل ما أنّ "فلول ذاكرته" قد فتحت في رأسها فوهات البراكين الرّاقدة وأنّ صورا جمّدها الزمن وصقيع النسيان قد بدأت تستعيد حركتها القديمة لكن بإيقاع آخر. لا عهد لها به...

كانت زينب عبد الجبّار قد استغربت رغبتها المجنونة في البحث عنه بعدما كفّ عن البحث عنها. وكانت قد سألت نفسها عديدا قبل أن تقرّر الالتقاء به ماذا تريد منه اليوم؟ وقد أهملته حينما كان مشدودا إليها... ملتصقا بها كظلّها... يحاصرها ويلح في طرق أبواب استقبالها. ماذا تريد منه اليوم وقد استقل بحياته عنها... واستقرّ مع غيرها ؟ لم تكن زينب تدري بالضبط ماذا تريد منه. ولكنّها أحست وهي تتجوّل في بيوت أشعاره وغرفها وزواياها ... أنّها ماتزال تسكن عمارته. وتؤثث ذاكرته وتعربد في الشرايين والأوردة.

كانت قد سألت نفسها مرارا : "ماذا؟ ثم ماذا؟ هل هو عشق لصُورَة الوجه في المرآة ؟ أم هو الفضول؟ مجرّد فضول عابث، يتلهّى بما ترسب في أعماق الآخرين ويوجد لنفسه المتعة من خلال بعثرة الأشياء والإلقاء بها خارج أنساقها لتعود إلى فوضاها القديمة؟ ليكن ! ولكن أيّ متعة تحصل بعد ذلك ؟ وما الغاية ؟ وماذا يفعل الإنسان بالفوضى التي أمضى العمر في ركنها وتوزيعها وتخزين ما يمكن تخزينه منها ؟

كانت تحس بالخجل من نفسها وهي تخطّط للقائها به. ولكنّها كانت تلتمس لنفسها الأعذار وتذهب إلى أنّ أشعاره هي السبب، وأنّها كانت بمثابة نداء مبهم غريب وجهه بشكل ما إليها... فالتقطت ذبذباته واستجابت إليه... ثمّ تعود لتستغرب من نفسها : "ولَمَ استجيب اليوم... وقد كان منذ سنين إلى جانبي يلاصق جسمي فلم أكن أراه... ولا كنت أسمعه... وكأنّ جبالا من الحجر الصلد تنتصب بيني وبينه فإذا ما اخترق صوته الجبال عبر بعض فجواتها... كان الصوت يضجرني بل ويفزعني أحيانا فألوذ بأصوات الآخرين لأخرسه". وتذكّرت "لم أكن يوما رحيمة به"... ثم استدركت: ولَمَ الرحمة؟

إثنان لا يعرفان الشفقة ولا الرّحمة ولا الرفق بالإنسان : الحبّ وخلوّ القلب منه.

كانت زينب تلملم حرجها فتكثر من حركة تعديل جلستها على المقعد قبالته وهو ساكن يتفرّسها ويتثبت مما بقي من التفاصيل القديمة. ثم تحوّل نظره عن وجهها ليتركّز على أصابع يديْها وعندما تفطّن إلى اضطرابها، سألها:

- أين وصلت حكايتك مع الطين ؟ ... ماذا قلتِ له وماذا قال لك طيلة هذا الوقت ؟

أحسّت بالضيق وهو يذكّرها بمهاراتها القديمة في معهد الفنون الجميلة عندما كانت طالبة وعندما كانت تشكّل الصلصال وتضرم النّار فيه حتى يستوي خلقا كافرا بأليف الأشكال والسحْنات.

صمتت برهة ثم قالت: "سوق الطين كما ترى كاسدة" كلّ ما أصنعه اليوم هو الترميم. ترميم لما أنجزته أصابع أخرى من العهود القديمة. هم قالوا ما قالوه وانصرفوا. وها نحن اليوم نتدرب على تهجية القول القديم ولا نفهم إلاّ قليلا.

واستدركت زينب وقد أحسّت أنّها بدأت تدخل في كلام خاصٍّ بها. واستدارت أكثر نحوه:

- ولكنّي اليوم هنا معك لنتحدّث في الشعر... في اللّغة... لا في الطين وروح الطين، الطين لم يعد يصلح إلاّ لصنع الأواني التي تزخرف بها البيوت.

- كله حرص على الأجمل والأبقى.

- طبعا. لكن مع الفرق... المادة التي تشكّل بها أنت صورك... تعيش في حلوق الناس وصدورهم. ومادتي أنا أشكال مازالت تطارد معناها عند النّاس ولا تظفر به.

- أهم شيء هو أن نلتقي نحن وقبل أيّ كان بأنفسنا عبر ما نقول ونصنع.

تنحنحت قليلا، واقتلعت سعالا أرادته خفيفا فجاء متوترا وقد أحست زينب أنّ الحديث بدأ ينعرج إلى التعميم ويلبس لُبوس التقليد العقيم الفاقد

للمعنى على عكس ما أرادت، فحاولت أن تبتسم وتأخذ أجابته مأخذ الهزل وتصطنع جوّا مرحا شيئا ما.

- ليس دائما يا صلاح - ليس دائما، قد نلتقي أحيانا وأحيانا أخرى كما تعلم قد لا نلتقي بشيء.

كان يتأمّلها وهي في صخب اضطرابها تبحث عن شيء ما داخل حقيبة يدها الواسعة، ترتبها وتعيد ترتيبها ثم تغوص في أعماقها تطلب شيئا مهرّبا بين تلافيفها فتصطدم الأصابع بجملة مفاتيح والمفاتيح بواجهة قارورة العطر. كانت أصوات غريبة تندُّ عن الحقيبة تختلط فيها خشخشات الورق بشرننة المفاتيح وتكتكات مكتومة لعلب الزينة.

كان بودّه - لحظتها - أن يكسر أسيجة السنين العازلة ويمازجها كما قد كان يفعل سابقا. ويجبرها على إفراغ حقيبتها بكل الغرائب التي تشتمل عليها. كان بودّه أن يرى مرّة أخرى غضبها الطفوليّ وهي تحضن أشياء الحقيبة وتسارع باخفائها في حركة حماية تلقائية تحفظ للأنوثة أسرارها.

كان ينظر إليها وقد بدأت تغيم لتغدوَ أمامه -ذات يوم قائظ- نائمة، مستسلمة، ملتحفة هناك في بيته الصيفي، على كنبة صالونه الخشبية بلحاف أبيض مقصّب بخطوط رمادية وهو يذرع فضاء الصّالون ذهابا وإيابا. يريد أن يوقظها ولا يفعل.

كانت قد نامت ما إن وضعت رأسها على الوسادة بعدما أعدّت له "شكشوكة صيفية" كما يحبّها، ودفعت له بصحنه على منضدة البلكون المشرف على البحر وغرقت في صحنها تأكل... شاردة الذهن... صامتة منصرفة عن كلّ اهتمام بمن يجلس إلى قربها.

كان منذ مدّة ينتظرها... ينتظر حديثها... ينتظر قرارها. سلّمها كلّ مفاتيح حياته. خيّرها بين كلّ صيغ التعايش ولكنّها لم تردّ عليه.

كان قد مرّ عليه أسبوع كامل بأيّامه السبع الطويلة دون أن تهاتفه، دون أن تمرّ بمكتبه، دون أن تنهمر عليه في قلب الهاجرة كما تعوّدت أن تفعل،

لتهرّب نومه وتنفي سكينته وتوقفه على شفرات الشكّ والريبة... فتنطلق العواصف مزمجرة من جديد.

كان كلّ لقاء معها مُرْعدا، صاخبا... كانت تدق على بابه هكذا كلّما عنّ لها ذلك لتحمل إليه الهوج فتستعر نيران القربى ويضطرم لهيب الشوق، وتحتدم الرغبة فإذا وصلت به الأوج أطفأتها بجليد السهوم وعدم الاكتراث الذي ينتابها حالما تحسّ اقترابه منها.

كان ينظر إليها الآن وكان يودّ أن يقول لها: "كم أتعبتني ! كم بدّدت روحي ! معك كان الأمان يتاخم المجازفة ومعك عرفت أحلام الطفولة المفتوحة على الممكن والمستحيل وشهدت تفجّر الأنوثة في أقسى تعرّجها وانغلاقها وتثنّياتها المبيدة للصبر ولكلّ معرفة... هل تذكرين ؟ هل كنت تحدسين صعوبة اللقاء بيننا ؟ هل عرفتِ مرّة واحدة ماذا كنت تريدين منّي أو ما كنت لا تريدين ؟

أنا. على العكس ـ كنت أعرف ... لكنّك بدّدت كلّ يقين عندي وتركتني مفتوحا على جراحي... أخبئ عن الناس نفسي وأتوغّل بك وحدي في عزلتي عنهم وعنك.

سبع سنوات مرّت على آخر لقاء أو آخر فراق بينهما. كانت السّنوات التي عاشها معها سلسلة متقطعة من اللقاءات الصاعقة والفراقات الناهشة.

فلا اللقاء بينهما يدوم ولا الفراق.

قوة شيطانية عاتية، مدمّرة تجرّ الواحد منهما إلى الآخر وتعود لتسحبه عنه. لجاجة وبكاء وفرح تخالطه رغبة شقّ السماء والنفاذ منها إلى كواكب أخرى وعذاب وعنف ناسف وحنان يترقرق بين الضلوع.

انصراف ولا انصراف : حركات تتنافى وتتوالد من بعضها البعض... لا تستقرّ ولا تهدأ ولا تستكين.

هذه المرأة التي تجلس الآن أمامه هي نفس تلك المرأة التي كان يطلبها بكل حرقة الطينة المتشقّقةـ العطشى... هي نفسها تلك المرأة التي كان يخشى هوجها وانصباب زوابعها على رأسه.

لم يكن يصدّق لحظة أنّه سينجح يوما في الانفصام عنها وانسلاخ جلده عن جلدها. كانت جنته وجحيمه، حلمه وكابوسه، سعده ونحسه، كانت صنوه الحبيب ـ المقيت.

وحدها كانت قادرة على إخراج ما تشابك من خيوط وانعقد من أسلاك النفس المكهربة التي غيبتها رحمة النسيان البشري. تنبش قرارها كما يحلو لها بالكلاليب الحادة وتكدّسها أمامه أكواما فظيعة كلوحة غريبة من الفن التشكيلي الحديث... تتملاّها... ثم عندما يستعصي عليها فهمها تتركه وحده قبالتها لا يعرف كيف يعيدها إلى مكامنها القديمة فتتورّم أيّامه وتتشيْطن عليه لياليه. عندها يحس أنّه قد غادر عالم الناس جميعا ليدخل بمجاهل معتّمة، غريبة... تتردّد بين جنباتها أصوات مكتومة تنفلق انفلاقا ولا تعرب عن شيء فيسكنه برد لا قبل لفصل الثلوج به.

هي هذه نفسها بنظراتها الثاقبة حدّ الإرباك والغائمة حدّ التيه والضياع.

هي نفسها كائن من عالم خفيّ مجهول وإضمار مسبق لفعل لم يتبيّن بعد طبيعته.

كانت مستديرة دوما إلى عالمها لا تبرحه إلاّ لتراك وتتأكّد من أنّك مازلت هنا لم تتعدّ العتبة التي تركتك عندها بلا وعد بالدّخول ولا تسريح بإحسان.

اصطفق مصراع النافذة فأخرجهما من دوّامة الذكرى وعاد صلاح إلى السطح يسألها عن أخبارها فردّت عليه سؤاله بسؤال:

ـ وأنت ؟ أنت الذي بدأت الحديث. وأنا هنا لاستزيدك منه.

ـ كلام. يا زينب. مجرّد كلام... لا تقولي لي اليوم انّك ممَّن يسمع الكلام ويصدّق !

ـ لم لا. لقد قرأتك وسمعتك وصدّقت. وها قد جئت اليوم إلى بيتك أطلب بقية الحديث...

وردّد صلاح في نفسه كلمة ـ "بيتك" ـ وقدّر المسافة التي يحويها حرف النسبة ... وواصل لنفسه "كان يمكن لهذا البيت أن يكون بيتك أيضا..

"بيتنا"... ثمّ عاد ليستغرب: أيعقل أن يستهويها بيت الشعر إلى هذا الحدّ... وتعزف عن بيت العيش والسكن... أيعقل أن ينجح كائن اللغة في فتح شهيّتها إلى الحياة في حين فشل كائن اللحم والدّم فشلا ذريعا في جعلها تنصت إليه ؟

ثمّ سأل نفسه قال : "من أين يأتي هذا السّحر الساكن داخل الأجراس البعيدة - القريبة ولمَ توقظ فينا اللغة ما عشناه وما لم نعشه وكأننا فعلا في يوم من الأيام قد كنّاه ؟ وأين هي الحدود بين تخوم الأجداد والأحفاد ؟ ولماذا ينحسر الجلد الآدمي بعد طول امتداد ليرتد إلى حجم ضيّق يلاصق أحجاما ضيقة أخرى، يسميها تارة "معاشرة" وتارة "مجاورة" تتزامن في أنساقها الأعراف المستقرة، وتتشابك في سياقاتها الأحقاد المتبادلة والنوايا الطيبة منها والفاسدة.

وما السرّ في أن تفجّر الكلمات المنطوقة أو المشكّلة عبر رسوم خطية موضوعة ينابيع التوق إلى حدود لا تطرق... لا تدرك.

أيّ حجب تصونها الكلمات وأيّ أسرار تهتكها فتتسع جلودنا تتسع لتحوي العالم والكون بأسره... وتكشف لنا حقيقة ذواتنا المغيّبة داخل ذواتنا فتآخينا مع ما جهلنا من أنفسنا وما عاديْناه بعلم منّا أو بدون علم فضيّعنا على أنفسنا فرصة أن يكون العالم حولنا أوسع وأرحب.

وتابع في شرود "ألا تكون الكلمة في آخر الأمر هي التي صنعتنا وبعثتنا من سبات طينة هشة، كانت تحلم نَفسها ؟ مَنْ خلق الكلمة؟ أم تُرى هي التي شكلت وجودنا فقالتْنا فانتفضنا من الريم وانتصبنا فنبت لنا اذ ذاك عمود فقري وأطراف فمشينا أفلا يكون الكلام هو الذي يقولنا فعلا فيحقق ذاته عبرنا... فلا نعدو أن نكون حينئذ سوى تجسيد حرفي لما أراد أن يكونه في يوم من الأيّام عندما كان العالم صامتا يبحث عن شكل يتحقق فيه فكان أن صيغ مشروع الإنسان فكنّا.

أعادته زينب من استغراقه بإلحاحها مرّة أخرى:

- ما سرّ هذا الجمال في قصائدك الجديدة ؟

ضحك صلاح وهو لا يكاد يصدّق انقلاب المواقع.

ـ جمال ؟ قصائدي هي هي وأنا هو أنا... وكنت أنت بالذّات لا تعجبك لا القصائد ولا صاحبها.

أدركت زينب أنه يعرّض بقديم شراساتها معه وكانت تعرف أنّه على حقّ... لكن كيف ستشرح له الآن أنّها تلتقي به لأوّل مرة... وأنها اليوم امرأة أخرى لا علاقة لها بزينب القديمة وإن كانت مرتبطة بها ارتباطا صميميا وثيقا... لا خلاص لها منه. كيف تفسّر له شغفها الجديد به وبالجمال الذي يسكن نفسه ويتبعثر حوله...

قالت له وقد حزمت أمرها : لم تتغيّر كثيرا ولكنك صرت أكثر... أكثر... كيف أقول أكثر إغراء ... لقد سبق لي أن لاحظت ذلك من صورتك على غلاف الكتاب.

انخرس صلاح تماما. وارتبك... ولم يدر بماذا يجيب كانت زينب قد لاحظت حرجه وأحست بشيء من اللذة وهما يتبادلان المواقع فتبادره بما تعوّد هو أن يقوله لها ويروح هو ليجد نفسه في وضع المتغزَّل به... الذي يشرف على احمرار الوجه لولا حذق الرجال أيضا لعمليات التمويه الخاصة بهم... رغم أنّ الفضيحة كانت كاملة فالأعصاب قد توترت والأصابع راحت تعتصر بعضها البعض وجذع البدن قد انحنى على الركبتين المضمومتين إلى بعضهما البعض في حركة تلقائية تخفي ما حلّ بالدواخل.

لأوّل مرّة تشعر زينب بلذة الاقتحام والمبادرة وجعلت تحسد الرجال عليها.... لقد تعوّدت على تلقي كلمات التشبيب والغزل... وكانت لذلك متعة لا تعرفها سوى النساء وكانت تتصوّر حركة الرجل مضنية لأنها قفزة في الهواء قد تنسج جسرا وقد يقع صاحبها في هوّة الفراغ السحيق فيكسر كسرا لا جبر له. أمّا الآن فهي تعرف أنّها مجازفة لا تخلو من لذّة مهما كانت العاقبة.

حاولت زينب أن تخفف من حرجه فصرفت اهتمامه إلى الصالون...

ـ هذا الصالون يُشعر بالهدوء.

فردّ عليها بسرعة :

ـ أحسّ أنّه لن يستطيع الاحتفاظ بهدوئه طويلا.

كان يحس الحصون تُدَكُّ... والجسورَ تتهاوى ومن ركام الحجارة تندفع أسراب الطير الأبابيل بأجنحة من نار تضطرب في كلّ اتجاه تقبض على مصارين الحشا وتدفع بمرجل الدماء إلى الغليان والفوران.

مدّت كفّها نحو كفّه إذ لم تكن أحسن حالا منه ... فجذبها إليه وانتصب واقفا ثم ضغطها إلى صدره ولم يعد يدري بعد ذلك أي مركبة جنونيّة قد أقلّته على متنها ولا على أي كوكب حطّ... ولا إن كان ينتمي إلى فصيلة البشر أصلا أم إلى فصيلة الذرات والهباءات الشعاعية السابحة في الفراغ الكوني بلا غاية.

كان وهو يضغطها إليه ـ ينشد ملامسة شرايينه لشرايينها ومداخلة عظام جسده لعظام جسدها فتمنعهما كثافة الإهاب وأبعاد المادة التي لا تقبل مشاريع التحلل والحلول فيندّ عنهما أنين الشكوى وينهمر الدّمع ينعى عجز الرغبة عن التحقق وعن احتواء ما يفرّ منها فرارا محتوما لا برء منه رغم استعار براكين الجسد... إنّها حقيقة الطين الأخرى. التي لا تعرف كيف تجامل لتتجاوز الحدَّ المرسوم للمخلوق البشري...

كان وهو يحتضنها قد بكى طويلا وبتوتّر أفصح عما انحبس بين ضلوعه طيلة سنين وقال كل ما لم يستطع قوله لها شعرا. أو كلاما منثورا وكانت قد شرقت بدمعها وهي تنحفر في صدره. تريد أن تفتكّ بعنف اللحظة مكانا لها داخله.

هذى اللسان بما يعقل وبما لا يعقل ونطّت من غياهب النفس تنانين الغيرة وحمّى التملّك... وسمع صلاح نفسه يقول لها: لن أسمح لك بالذهاب بعد الآن، وأنّها لن تكون لأحد غيره وأنّها امرأته، أنثاه، حبيبته.

وسمعت نفسها مرارا وهي بين الغيبة والحضور تقول له: طلّقها! طلّقها. ثم تقول: اِلغ كلّ عقودك... أصير لك وحدك، وقالت له احبك وأشياء أخرى.

وتواصل هذيان النفس مادامت الحمّى، ثم بدأت المسامّ تلفظ الحرارة وتحوّلها إلى عرق بليل أيقظ الجسمين فشرعت العيون تستعيد قدرتها على النظر

حولها وبدأ الوعي بالمكان والزمان يعود إليهما فإذا هما ما يزالان هنا في ركن قاعة الجلوس... لا شاهد على ما حلّ بهما سوى فوضى الأشياء الصغيرة حولهما.

بقيا برهة صامتين، يستعيدان ما حدث بينهما بشكل سريع محموم، دون أن ينجحا في التركيز على أي شيء.

ابتعد صلاح وهو يدور حول نفسه يعيد أشياء القاعة إلى أماكنها وهو يدري جيّدا أنَّ ما تبعثر داخله لا يملك له ترتيبا. واغتنمت زينب فرصة قيامه واختلقت عذرا واهيا.... يمكّنها فقط من مبارحة المكان وبدأت علامات اضطراب ما تطفح على الوجه وتخذل الحركات الرشيقة.

تـــمـــــــاسّ

الفصل الثالث

لم يشهد مقرّ الجريدة من قبل مثل هذه الحركة... ذهاب وإياب، دوران في الأروقة وجهاز الرّاديو، تتخاطفه الأيدي، وإبرة الجهاز لا تكاد تستقر في محطّة ما. كان الوجوم على الوجوه يلبسها... والسحنات مشوشة. والبنات بلا زينة ولا ألوان على الشفاه ولا على الخدود. وجوه صفراء مذعورة... وقلوب راجفة... وإحساس بالعجز يقيم عند الجميع...

الأخبار تتساقط من وكالات الأنباء العالمية...

دمار يتلوه دمار... بين بنايات تنهّد في لحظة كأنّها صنعت من ورق... وأجساد تمزّق جملة وتفصيلا وموت يجول في الطرقات ويحلق في سماء تلك المدن الجريحة ليلا نهارا بلا توقف...

في كلّ نشرة أخبار ... يهرع كلّ من في البناية يتسقّط الأخبار والصور... وصوت المذيع يبث مع الأخبار هلعه وألمه... فتتشربه الآذان ويستقر عندها في برك الشك والتساؤل الذي لم يعد قادرا على صياغة نفسه.

وتتشابك النظرات تتبادل عجزها عن الفهم وتنطلق الألسنة بعد وجوم، تعلّق، تفسّر تحلّل وتتوقع وكأنّها تريد أن تطمئن على سلامة العقول في عالم بدأ يفقد أبجديات القوانين والمنطق.

انسحبت زينب حسان من بين جمع الصُّحفيين وقد تعطّلت ملكة السمع عندها. وتحوّلت اللغة إلى طلاسم وأصوات تطنُّ ولا ينفذ منها معنى يفهم وأطلّت من النافذة على شوارع المدينة، فإذا الصمت يخيّم على كلّ رجاء، وبعض المارّة يسرعون الخطو، بعضهم يلصق جهاز الترانزستور إلى أذنه وهو يسير ومقاعد المقاهي شاغرة على غير عادتها والناس داخل المنازل والمكاتب معلّقون بحبال البثّ متحلقون حول أجهزة الإخبار يطاردون الأنباء من محطّات العالم الإذاعية... وقد أهملت ربّات البيوت منذ أيّام تجهيز الأطعمة وتنظيف البيوت... ونسي التلاميذ كيف يعدّون الدّروس... وبقي العملة والموظّفون

يسهرون إلى آخر وقت مع مذيعي الأخبار ويستيقظون على نشراتهم الخاصة... لا أحد عاد يذهب إلى فراشه لينام فيه... كلّ العائلات تنام حيث هي في قاعات الجلوس... حول جهاز البث وتستفيق على صوت المذيع ولا تسمع من حين لآخر إلاّ الدّعوات الكسيرة المبهمة "يا رب" ! لقد سرى الشلل في مفاصل الأرجل والأيادي والأدمغة... وأصاب إحساس اللاّجدوى كلّ النّاس... حتى التجّار... إذ لم تعد قضيتهم تتلخص في "أبيع أو لا أبيع"... مادام الضرب اليوم لا يستهدف أرباحهم اليومية الصغيرة... بل يستهدف علامة وجودهم مباشرة. كنت تستطيع أن تأخذ ما تشاء من السلع دون أن ينتبه إليك صاحب المحل... فهو ينظر إليك ولا يراك، وإن تكرّمت عليه بالمقابل يلقي به مباشرة في الصندوق دون أن يراه. مشكلته الوحيدة... هو أن يتابع الأخبار، ويعدّ الخسائر... في انتظار المعجزة المنتظرة التي ستقلب الموازين رأسا على عقب. فالمعجزة هنا... في زاوية ما... ولابدّ لها أن تحدث ! أكيد أنّها ستحدث ! كيف ؟ ... لا أحد يعرف. وليس مهمًّا كيف ستحدث... لكنّها ستحدث... يجب أن تحدث... هذا وقتها المناسب... وإلاّ "مْشِينَا زيزِي" كما كان عمّ الهادي صاحب المقهى المجاور للجريدة يقول ويعيد.

*****

لاحظ حامد حزن زينب وصمتها الدّائم وهي تطلّ على الشارع ولا تقول شيئا، فالتحق بها واقترب منها ليشاركها النظر إلى شوارع المدينة المقفرة. أحست به إلى جانبها يكلّمها في صمته يقاسمها مشاعرها ويلتقط مخاوفها فلم تشأ النظر في عينيه وتمتمت وكأنّها تحدّث أشباحا رابضة في البنايات القائمة أمامها...

ـ "لدوا للمَوت وابنوا للخراب..."

لم يعلق حامد على ما قالته إلاّ بعد لحظة وكأنه أعطى مهلة لنفسه حتى يقرأ ما سبق الجملة من حديث لم ينطق به اللسان:

ـ عبث ... صحيح ... ولكنّه حقيقة البشريّة قاطبة.

فاستدارت نحوه في غضب مكتوم...

ـ لا. هو عبث يخصنا نحن بالذّات ! أنا لا أقصد الشيخوخة المحتومة ولا البِلَى المعهود.

ـ إذن ؟ ...

ـ أقصد هشاشتنا الموروثة !.. لا ينفعها اليوم مبدأ "تكاثروا، تكاثروا". نسل واهن ضعيف لا يُفْلح إلاّ في أكل بعضه البعض حين يجوع.

ـ مبدأ التوازن الطبيعي ! هكذا يقول "الإِيكُولُوجِيُّون".

ضربت زينب بقبضتها على إفريز النافذة فانتفض حامد ونظر إليها... وأضافت :

ـ كان بودّي أن تكون لي برودة "الإيكُولُو"... وهو ينظر إلى المطحنة البشريّة ويقرّر بأن ذاك لا يعدو أن يكون إلا استجابة لقانون الطبيعة تحرص على توازنها ! وهذا القلب النازف قل لي ماذا أصنع له؟ وهذا الوجع القابض على عنقي ما حكمته ؟ وهذا الشعور المدمّر بالخواء ... باللاّجدوى... بانطفاء جذوة الحياة كيف أصرّفه أو أصرفه... ومن أجل من؟ وماذا ؟ ... قل لي هل مازال هناك في العالم ما يستحق أن ننزف من أجله ؟؟ ومدن النور قد عشيت عيونها فجعلت تقذفنا بديجور قرونها الوسطى؟

لم يردّ حامد على وابل أسئلتها... لأنّه كان يدري أنّها لم تكن تتجه بالسؤال إليه بقدر ما كانت تصوغ الأسئلة لتنفيها. وقد سبق لها أن نسفت بديهيّ أجوبتها ؟...

كان حامد يتوقع منها أن تنفجر باكية وقد وصلت حدّا من التوتر ينبيء بذلك... كان بودّه أن يدثّرها بما يملك، ولكنّه يدري أنّه لا يملك شيئا يسعفها به فهو مثلها حزين ويائس ومهزوم حتى النخاع وحبّه لها عارم، يرتطم بجدران الروح يعرّش على كامل مساحة الجسد ويطل من مسام الجلد... يروم النفاذ إليها فلا يفلح...

ـ كان يريد أن يقول لها : "لم يبق للنسل الواهن إلاّ ذكورة القلب... أو أنوثته: سيان. فهل تفهم الطبيعة ذلك ؟ ... وهل يشفع القلب لاختلالات العقل... واستقالاته ؟".

كان حامد يصوغ أسئلته الموجعة ولا يجرؤ أن يقولها... عندما انفجرت زينب ضاحكة... في هيستيريا لم تكن لتخفى على أحد... ثم توقفت وهي تكفكف دموعًا انفرطت من عينيها.

ـ تعرف... يا حامد آخر نكته يتداولها الناس في الشارع ما هي؟

فأومأ حامد برأسه بعلامة النفي وقد ألجمه سؤالها المفاجئ.

ـ يقول الناس في الشارع ـ يا سيدي ـ بعد أطنان القنابل التي سقطت على رؤوس الناس وعجنتها بالتراب وبعد تفرّج الناس على طائرات "الفيرتيف" التي لا ترى إلاّ بما تخلّفه وراءها من نار ودخان... أنَّ المعجزة العربيّة آتية لا ريب فيها... وأمارة حدوثها الوشيك... ما حلم به بعض الشيوخ المُلهَمين من أننا سنكسب الحرب رغم كلّ شي.

كيف ؟ بسيطة على من لا يصدّق أن يفتح مصحفه يبحث فيه بين أوراقه فسيجد شعرة سيدنا علي تتوسط سورة البقرة...

فضحك حامد معقبا :

ـ هكذا ؟ معقول ... معقول جدًا. لَمَ لا ؟ لا حدّ يفصل السحر عن الواقع.

فقاطعته زينب وهي لا تنقطع عن الاهتزاز من فرط الضحك.

ـ انتظر ... انتظر يا حامد ... مازال المسلسل طويلا. تسأل الناس عن بقيّة الرؤيا فيقولون لك بكل حماس وإيمان لا يحتمل ذرّة من الشكّ... نعم فتحنا المصاحف فعلا وفوجئنا كلنا بوجود شعرة سيّدنا علي في الصفحة ذاتها ... إنّها شهادة لا تقبل الطّعن.

فردّ حامد:

أطرقت زينب لحظة وهي تهزّ راسها يمينا شمالا وقد انقلب ضحكها إلى حزن طافح ثم انقضّت على حقيبة يدها واندفعت نحو الباب. كانت قاعة التحرير ما تزال تعجّ بالصحفيين والعملة، وجهاز التلفزة يلتقط الأخبار التي تبعث بها إليه وكالات الأنباء العالميّة... وأصوات المذيعين في محطّات البث الإذاعي تتداخل من أجهزة الترانزستور والناس منتشرون... "يَفْلُونَ" الصحف المكدّسة بعديد اللغات... ويتبادلون التفاصيل. يجلسون برهة وسرعان ما تأخذهم نوبة التمشي والعود على الأعقاب... ودخان السجائر المحروقة يتكثف في فضاء القاعة... وعمّ الهادي قد ترك مقهاه وألمّت به حمّى اللجاجة يحمل طبقا فيه فناجين القهوة التي قرر أن تكون مُرّة دون استثناء أحد ويسترجع الفناجين الفارغة... لم يكن عم الهادي ليترك محلّه إلى النّادل يشرف عليه ويحمل هو أطباق القهوة إلاّ لأنّ الحاجة عادت ملحّة لاستقاء آخر الأخبار والاستماع إلى مختلف التعاليق... فهو إما أن ينسى الملاعق أو صحون الفناجين... أو أنّه ينسى أن يعبئ الفناجين فيعود بها أحيانا كما حملها فارغة ووسخة بما ترسب فيها من "التنوة". ويجلس بين الصحفيين يحملق في وجوههم قائلا : "هاه الأولاد ؟ آش ثمّة جديد ؟".

فيجيبونه دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء النظر إليه : "لا شيء"... فيغضب.

كان لا يحبّ "اللاشيء" هذه وترتجف يداه فتقرقع الفناجين وسط الطبق الملتصق بكفّه ...

"البارح ما رقدتشي يا الأولاد... صلّيت "للحسين" ضرب الأعداء في القلب... الشايب عندي بْكى ومرتي في عقاب الليل زغردت ! ... شوفو الأولاد ... الأمل توه في "الحسين".

التفت إليه أحد الصحفيين وحاراه ساخرا :

- وفي بُوه زاده ! .... يا عمّ الهادي. أحنا صرفنا صرفنا !

*****

خرجت زينب تنشد المشي في الشوارع التي هجرها روّادها... ومرّت من أمام باعة الزهور في الشارع الرئيسي ... نفس الكآبة في العيون وفي السماء المتلبدة بسحبها الرماديّة وفي قلب الزهور المعروضة للبيع...

وتساءلت زينب "من يفكّر هذه الأيّام في شراء الزهور ؟" وتابعت سيرها وهي تدس رأسها داخل ياقة معطفها العريضة حتى وصلت خدود تمثال ابن خلدون الراسخ في الحجر يستقبل الأحقاب ويصرّ على "المقدّمة" ويردّد ولا من سميع: "إنّ الأخبار إذا اعتمد فيها بمجرّد النّقل ولم تُحَكَّم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر فربّما لم يؤمن فيها من العثور ومزلّة القدم"...[2].

وأرادت زينب أن تقول له " من أين لنا أن نعمل العقل في النقل... يا ابن خلدون... ونحن بين عقول قد هاجرت وأخرى ارتدت واستقالت والاخرى بين هذه وتلك ينهشها الألم لأنها تفهم ولكن لا قدرة لها على هذا الجحيم ؟

واصلت زينب سيرها في شارع فرنسا الذي يقف عند الباب العتيق ودلفت إلى أزقة المدينة "العربي" تحتمي بجدرانها المتلاصقة من شعور اليتم والخواء... وفاجأت نفسها هكذا بلا مناسبة تفتح خياشيمها لتخزن الروائح المعلقة في أفنية الأسواق: شيء من الرطوبة مع بقايا بخور، مع عرق بشري مع خبز في الفرن مع صراخ أطفال القى بهم الأهل إلى الزقاق كي ينصرفوا لمتابعة الأخبار... روائح الحنّاء مع روائح العطورات المقيمه بسوق العطّارين... تتحدّى عفونة العالم "الجديد" ... وتقول ... "إنّا هنا مازال لنا نشر

2- ص 8 من المقدّمة لابن خلدون I.

ورائحة"... كلّ المتاجر مفتوحة ولا زبون يشرّف المحلاّت بارتيادها. وأصحاب الدكاكين يصيخون السمع لما تبثه إذاعات العالم من أخبار... والأصابع العرّيفة تواصل التطريز والتوشية والإبرة تخرز القماش من تلقاء نفسها في حركة آلية لا علاقة لها بأُذن صاحبها التي تكاد تدخل كلية في المذياع...

لقد كفّ الباعة عن اصطياد المارّة بلغات العالم كلّه كما تعوّدت أن تسمعهم في ذهابها اليوميّ وإيابها. ولم يدْعُها أحد "تفضّل يا عروسة... تفضّل شوف لداخل ! ..." ... كما تعوّدوا أن يدعوا أيّ امرأة ولو كانت في عقدها الثامن... كانوا يعلمون أن لا أحد "يعرّس" هذه الأيام وقد انخرطوا تماما في الإضراب العامّ عن الفرح والابتهاج...

وصلت زينب ساحة القصبة ولم تكن قد تبيّنت ما سلكته من أزقّة تتشابك وتتنافذ يلقي بك الواحد منها إلى الآخر في لطف ليلفظك إلى الساحات. وأسرعت الخطو نحو نهج الجلد، وتوغلت في أزقته.

*****

كان الحاج قاسم في الغرفة المقابلة للسقيفة يتكئ على جنبه الأيمن وعلى الطاولة أمامه كؤوس الشاي والقهوة وقرب أذنه المذياع العتيق وعند قدميه يجلس عمّ رمضان "عشير عمره" كما كان دوما يقول...

كان عمّ رمضان في الستّين من عمره اشتغل طويلا في تجارة الصوف الخام والمنسوج وكان الحاج قاسم لا يحلو له أي مكان يجلس فيه إلى أصحابه إلاّ دكانة محلّ عمّ رمضان بنهج المرّ يدخن شيشته ويعلّق على آخر الأنباء ويسبّ بني صهيون الذين تسببوا حسبه في كلّ شيء ! في مجاعات افريقيا، في تدهور العُملة... في انعدام البَركة... في الفيضانات... واشتعال البراكين وفي الهزات الأرضية وفي فساد الأخلاق... وكان يحلو له أن يدقق النظر في من يمرّ أمامه من النساء وهو يواصل قذف العالم بسبابه يتملاّهن جيّدا ثم يتفّ عليهنّ بعد أن يكنّ قد ابتعدن عنه... فيعاتبه عمّ رمضان وقد تعوّد منه ذلك:

- يا راجل ... قيلْ الوَلاَيَا....

ـ يا خي ما عندهمش رجال وإلاّ شنوّة؟

ـ عندهم... هاك تشوف... الرجال في كلّ بقعة... في الحوانت... في القهاوي... في المكاتب ... تبارك اللّه...

ـ ايه قاعد نرى... ما قلتلكش وفاوْا من الدنيا أنا ! ... آما آش قعد فيهم ؟ الكبار مسلّمين ! والصغار ممسوخين ! ...

لم يكن عمّ رمضان راضيا تماما على ما تعوّد الحاج قاسم أن يقذف به العالمين... ولكنه كان يجاريه حتى يلطّف مزاجه ويصرفه عن طبعه المعادي لكلّ الناس.

دخلت زينب وألقت بتحيّة مقتضبة واحتفت أكثر بعمّ رمضان الذي كان يكنّ لها محبّة كبيرة كتعويض عن البنت التي لم ينجب. فاستقام أبوها وبادرها بلا مقدّمات :

ـ آ... هاك روّحت قبل المغرب كيف السبّة ؟ آش فمّة جديد عندكم؟ آشنيّة الأخبار ؟ ...

كانت زينب تعرف مسبقا ما سيلي هذه المقدّمات فاقتصرت على : "لا شيئ ! ... أمّي لا باس ؟"

ـ خير منّي ومنّك ... آش ناقصها... تحت البطاطن، الدّفا والعيشة.

آلمتها فظاظته... رغم أنّها قد تعوّدت عليها منذ زمن طويل... كان بودّها أن يسبّها هي فهي واقفة على رجليها... ولها القدرة على تلقّي سياط لسانه... أمّا أن يتحدّث عن أمّها بتلك الغلظة المجانية... فهذا ما كان دوما يثير أعصابها...

لم تقل له شيئا... واستدارت تقصد غرفة أمّها المريضة منذ أسابيع. عندما اعترضتها "هنيّة" وجرّتها من ذراعها إلى المطبخ... وجعلت ترفع الأغطية عمّا أعدّته من أكل للعائلة... وسوائل لأمّها... بدت "هنيّة" وهي تكلّم زينب مرحة شيئا ما وإن كانت تحرص على إخفاء ذلك على عكس ما كان يلاحظ عليها دوما من انطواء.

سألتها زينب وهي ترفع غطاء الآنية تتذوّق شيئا من صحن "أمّك حوريّة" :

- باش تروّح ؟

- إمّا لا ! عمّك المولدي، يستنّى فيّ !! ... هو صحيح لا خدمة لا قدمة ... أمّا ها الأيّام بطّل الشراب ! ... وما عادش يسبّني ويضربني كالْعاده... ما عاد لاهي كان بأخبار الحرب، باسرائيل ولاميريكان يسبّ فيهم م الصباح لليل ... هايج هيجة عمري ما شفتها... وكِ تكثر الأخبار عليّ وما نفهمشي ونبدأ نستفسر فيه يكركرني لبيت النوم ويقول لي "الله أكبر" يا مرا... "نصر من الله وفتح قريب".

ثم أردفت وهي تخفي ضحكة متخابثة.

- وأنا يا زينب يا بنيّ ما نكذبشي عليك ... عاجبتني ها "النصر من الله وفتح قريب" ... ياختي قل لي بالحق المسلمين ربْحوا ؟ ...

تردّدت زينب بين الضحك والرثاء... وتشاغلت بإعانة هنيّة على ارتداء "السفساري" وهي تطمئنها ...

- لازم هكّة... يا هنيّة... موش عمّ المولدي قال ؟! ...

- قال ! ...

- وفَى ... هذاكة هو ...

خرجت "هنيّة" مسرعة... تنشد لقاءها الجديد مع زوجها الذي أعادته لها الحرب بلا مبرّر وشحذت فحولته بعدما أطفأتها لسنوات قارورة الشراب الرّخيص فلم تبْقِ منه سوى لسانٍ سليطٍ مقذعٍ تجمعت حول حُلَيْمَاته كلّ قاذورات الخليقة التي ترسبت في برك روحه الراكدة. كانت هنيّة قد بدأت تشتغل منذ سنوات في منزل خديجة، تعينها على ما لم تعد قادرة على القيام به من أعباء المنزل العتيق... وتشكو لها عذابها اليوميّ وتبكي لتجلو الهمّ عن نفسها. كانت خديجة رحيمة بها، تبثّها أسرارها وتحدّثها عن خرابات روحها وكراهية زوجها لها... وتنكيله بها في الليل والنّهار، بسبب وبدون سبب.

كانتا وهما تسردان غرائبهما الحميمة قد أدركتا أنّ الهمّ واحد وإن تعدّدت الأشكال وتنوّعت الأساليب ودالت الأجيال.

كانت هنيّة تقول في زفرة حارّة وهي تهرس التوابل في سقيفة المنزل مفترشة جلد خروف وواضعة أطراف فستانها بين فخذيها حتى لا تتعرّى...

- ياختي خديجة... لاني معاه بنادم في النهار ولا مرا في الليل... هي البهايم - حاشاك - تعرف ترفق ببعضها.

وتصمت خديجة وتشرد بخواطرها وأصابعها تخلط التوابل المهروسة وتعبئها في القوارير... إنّها تعرف قدر البهائم جيّدا. لم يحدّثها أحد عن طبيعة العلاقات بين الرجل والمرأة... إلا ما كانت تتهامس به بعض الصبايا في الخفاء عندما كانت صغيرة تتبعثر بين أرجلهنّ. لقد اختطفوها من ملعب الصبايا ومايزال غبار الشعاب الرملية عالقا بقدميها لتجد نفسها تزفّ إلى رجل لا تعرفه وقد حاضت لأوّل مرّة عنده... فكان هلعها شديدا، وصوّر لها خيالها الطفولي أنّ شريانا ما قد انفلق داخل أرحامها بفعل العنف المتوحش الذي يمارسه عليها ذاك الرجل الغريب المتَلَفّع بالصمت. لقد أعيتها حيلها الطفلية فبكت بين يديه مرارا، وقبّلت قفا كفّه مرارا... وبادرته بكمشة من حلوى ولوز وجوز كما كانت تفعل لاسترضاء أصحابها من الأطفال حتى يلين معها ووعدته بهدايا تحملها له من بيت أمّها عندما تذهب لتزورها. ثم أدركت مع الوقت أنّها اقتلعت من جحر أمّها نهائيا... وأنّ على أمّها إن رغبت ان تزورها على أن لا تطيل الزيارة أمّا العكس فمُلغيٌ...

كان قاسم ما إن يفرغ منها حتى يستدير ويدير لها الظهر فتبقى ترتجف وقد تكوّرت على نفسها لا تعرف بمن تحتمي من يتمها ويطول بها بَرْدُ اللّيالي وهي صاحية، شاخصة النظر لا يعرف النوم إلى جفنيها سبيلا... وتقبض عليها الوحشة فتعود إلى وضعها الجنيني واصلة ركبتيها بذقنها وتلتصق بظهر زوجها تتصيّد شيئا من الأنس ووهما من دفء جلد آدمي حيّ بعدما يكون هو قد غاب في غطيط من النوم...

كان كلّ صباح يقتصر على هزّها من كتفها هزّات لا رفق فيها حتى تستيقظ... ويكون ذلك آخر عهد لها به حتى المساء القادم... كانت لا تسمعه يتكلّم إلاّ مع أمّه ولا تسمعه يضحك إلاّ معها... ولا يتناول الطّعام إلا على مائدتها وكانت أمّه هي التي تختار له قطع اللحم وتقرّبها من فمه فيلتقطها بسرعة مزهوّا ممتنا. وكانت خديجة في قيام وقعود بين حمل الأواني والإتيان بأخرى لا تنعم بالجلوس معهما... كانت تتلقى كلّ الأوامر والنواهي من أمّه وقد دخلت منذ اليوم الأوّل في خدمتها... وكان كلّ ما يجلبه قاسم من السوق يضعه أمام أمّه الجالسة وسط الغرفة المشرفة على السّقيفة فهي التي تخزن ما تشاء وتلقي بما لا يعجبها إلى الكِنّتين... لقد فهمت خديجة مع الأيّام أنّ حال سِلفتها من حالها وأنها لا تمتاز عليها إلاّ بالصبر والمكابدة.

وقد أحسّت الأمّ بتواطئهما الصّامت في الأيّام الأولى فباعدت بينهما بتكليف كلّ واحدة بشغل خاص بها طيلة اليوم حتى لا تجد الواحدة منهما فراغا فيه قد تغتنم الفرصة لتحدّث الأخرى بأسرارها ومخاوفها.

كانت عيناها على كلّ واحدة منهما، وقد أوكلت إليهما كلّ أعباء البيْت وانفردت بصحبة ولديْها يدّخران أموالهما عندها ويخصّانها بالعناية والهدايا. وكانت قد منعت عن كنّتيْهَا كلّ زينة حتى قوارير العطر التي كان الزوجان يعودان بها من المتجر ولا يجرؤان على تسليمها لزوجتيهما... فكانت تتعطّر هي عوضا عنهما وتحضر الأعراس نيابة عنهما وتحمل ولديْها معها. في تلك الأحيان التي كانت تغادر فيها المنزل كان يمكن للسِّلْفَتين أن تبكيا سويا وأن تبثّ الواحدة للأخرى حرقة نفسها... وأن تتحدّثا في جزئيات الحياة "الحميمية" ... وكلّ واحدة تودّ ان تجد جوابا لحيرتها عند الأخرى...

ومن تلك الأحاديث عرفت خديجة أنّ سلفتها كانت قد عرفت بعض السعادة مع زوجها ليلا وأنّه يسمح لنفسه بمداعبتها وملاطفتها فتنسى بذلك ضنك نهارها وكان يوصيها بإخفاء ابتهاجها حتى لا يتفطّن أحد لذلك ويذكّرها بأن ما يأتيانه من عناق حميم هو ضرب من ضروب العيب والحرام يقترفانه معا ضدّ السنّة والأعراف. وكان ذلك كافيا ليجعلها طيلة يومها

تطأطئ الرأس وتنشغل أكثر حتى لا تتفطّن أمه خاصّة إلى سعادتها الآثمة فتصيبها بلعنات لا قبل لها بها... وكانت لا شيء يجعلها تتحمّل شقاء النّهار مثل انتظارها للإثم القادم.

كانت خديجة تغبط سلفتها على ما استطاعت افتكاكه من الدنيا... وكانت تنتظر من زوجها شيئا من ذلك... لكنه لم يكن يأتي لفراشه إلاّ لينام وقبل ذلك يتخلّص مما يثقل ظهره وينتهي كلّ شيء.

حملت خديجة وهي لا تدري ما الذي يحدث داخلها وولدت مولودتها الأولى بلا ضجيج ولا جلبة. عندها عادت للالتقاء بأمها. لقد بقيت إلى جانبها أربعين يوما ترعاها وتقوم بشؤونها وتحدّثها وتشفق عليها وتحنو وتشدّ من أزرها... كانت تبيت إلى جانبها وقد هجر الزوج غرفته وكأن لا علاقة له بما حدث لها... يسهر في "الوسطيّة" وينام هناك على حشايا الصوف المحيطة بالغرفة.

وكانت الأمّ في غرفة الجلوس تستقبل ضيوفها ومهنّئيها وتتنهّد وتقول بصوت تتعمّد أن يكون مسموعا : "على ماذا يا حسرة... على شقفة أخرى؟". وتفاخر كنّاتها بأنها لم تنجب سوى الذكور...

وتسمعها أم خديجة وهي تحمل الرضيعة بين ذراعيها وتغنّي للبنت في حماس "لا تفْرحي يا أم الولد تكبر بنتِي وتاخذه..."

وتحدس خديجة أبعاد الكلام الملغوم بين الأمَّيْن وتتألم في قرارة نفسها عندما تفكر في حظ ابنتها إذا كان على شاكلة حظّها مع زوجها.

لم تتعوّد خديجة أن تبقى مستلقية على الفراش لولا حرص أمّها على ذلك... فكانت كلّما دخلت حماتها سارعت بالجلوس وهي تعتذر عن بقائها في الفراش... فترميها الحماة بنظرة حاقدة تشي بكل وعيد التنكيل القادم بعد رجوع الأمّ إلى بيتها.

مازالت خديجة تتذكّر ذلك بكلّ وضوح وكأنه حدث البارحة...

لقد منعت حماتها ابنها من المبيت في غرفة نومه سنة كاملة وحرّمت عليه أن يرى ابنته طيلة تلك المدّة. حتّى اقتحمت عليه الصغيرة غرفة الجلوس

وقد تعلّمت المشي ونطق بعض الحروف... يومها ولأوّل مرّة رأته يعانقها ويبكي بشهقات مكتومة... ورفع إليها طرفا وهي تنشر الغسيل لم تتبين معناه لكنّها أحست لحظتها أنّها قادرة على نسيان كلّ ما فعله معها... وقد اكسبتها أمومتها المبكرة فيْضا آخر من الحنان، لا تطلب إلاّ أن تشمله به وتغدق به عليه.

حاولت خديجة يوم موت حماتها أن تحزن لكنّها لم تستطع. كانت سعيدة على عكس ما كان ينتظر منها الموقف. لقد زال كابوس حياتها... وعندما انفجرت باكية مع الباكيات فلأنها تذكّرت ما فعلته هذه المرأة معها... كانت تبكي أحزانها للتطهّر منها... وكانت تنتظر بفارغ الصبْر دفن العجوز حتى لا يعنّ لها أن تتراجع. من يدري ؟ كانت تتصوّرها قادرة على ذلك ... لا لشيء إلاّ لتنغّص عليها حياتها وتمنع السرور من طرق بابها.

استعاد زوجها مكانه إلى جوارها في غرفةِ النوم وخيّل إليها أنّه قد تغير قليلا وقد تحرّر من سطوة أمّه عليْه... لكن سرعان ما تلبّسته أمّه... فعاد من الصعب عليها أن ترى قاسم دون أن تطلّ الأمّ عليها من نوافذ عيْنيه ترشقها بوابل الاشمئزاز والحقد... وبدأت شيئا فشيئا تزهد في علاقتها به. ومع الأيام تحوّل الزهد إلى قرف، فلم تعد تهتم بنظافة جسدها ولا تحتفل بأي عطر يحمله إلى البيت ولا تستهويها الملابس الجديدة وكانت تتعمّد ترك شعرها منفوشا تلفّه بمنديل علّه يقرف منها هو الآخر نهائيا ويستقلّ كلّ واحد منهما بجسده. لقد تحوّل الليل جحيما بالنسبة إليها... فكانت كلّما رأته يتخفف من ثيابه يصيبها اشمئزاز من لحمه المتهدّل وبطنه المكوّرة أمامه ورجليه النحيفتين وكان كلّما اقترب منها يكاد يقبض روحها بسبب رائحة العرق العطنة التي تفرزها مسامّه رغم الاستحمام والتوضّؤ والتعطّر...

كانت تحسّ بحدس الأنثى التي نضجت رغم جهلها بكل تقنيات الحبّ ومراسمه بأنّه قاصر ومتردّد وغير قادر على إرضاء الأنثى فيها وأنّه جاهل بأسرار الحبّ مثلها بل ويفوقها... وكانت كثيرا ما تغالب رغبة الضحك منه في أدق

اللحظات وأحرجها... لكنّها كانت تغالب نفسها حتى لا يتحوّل معها إلى وحش كاسر، يكسّر لها عظامها.

وقد زاده وَلَعه الجديد بالفقه بعد ذلك وتدارس الحلال والحرام مع أصحابه إلى إمطارها بوابل من البدع ـ فأصبح الإقبال بالبسْملة والإدبار بالإستغفار... والجماع يعقبه اغتسال من الذنوب... وبدأ حجم العورة يكبر حتى كسى كامل البدن فوجب حجبه عن الشمس والهواء ونعمة الحياة بأستار من الأردية الفضفاضة فلا يبدو منه سوى شحوب الوجوه وانكسار بريق الحياة وكأنّ الحياة قد عادت شرّا ومحنة يكابدها الإنسان غايته الفراغ منها لاستقبال الموت والتعجيل به...

*****

دلفت زينب إلى غرفة خديجة، وقد حاولت التخفّف ممّا كان يشغلها، كانت تعرف أنّ أمّها تنتظر عودتها بكثير من الشوق، لقد كانت ترى فيها مجمل أحلامها التي لم تتحقق. جلست على حافة السرير، فاستدارت خديجة على جنبها واتّكأت بمرفقها على الوسادة وأسندت رأسها إلى كفّها... وتألّق نظرها في تعطّش إلى الحياة وأخبار الدّنيا...

كانت خديجة قد استردّت شوقها للحياة منذ بدأت زينب تشتغل فلقد أحسَّت معها بالإكتفاء، الذي حرّرها من تبعيّتها المهينة لزوجها... وكانت زينب بالنسبة إليها هي النافذة التي تطلّ منها على عالم الناس بكلّ إثاراته وغرائبه... وهي الرئة الجديدة التي تتنفّس بها هواء العصر... وكانت تدعو لها صباحا مساء. بأن لا يوقعها الله في شراك رجل يستعبدها ويسرق منها تألق شبابها ودفق انطلاقها...

إلاّ أنّها في قرارة نفسها كانت تخشى أن تبقى ابنتها عانسا بسبب اكتفائها بنفسها وانشغالها بشغلها وعزوفها عن فكرة الزواج.

لقد حدث أن فاتحتها يوما في موضوع ميل حامد إليها... وحكت لها عن تفاصيل مغامراته معها... وكانت خديجة قد حثتها على الارتباط به، لأنّها

رأت أنّه لا يحمل ملامح قاسم زوجها فهو من اللطف ما لم ترَ مثله ومن الحساسيّة ما لم تسمع عنه من قبل ولا في حكايات أولاد السلاطين.

لكنّ زينب كانت منصرفة عنه تماما لذات السبب الذي استمال قلب خديجة. كانت تبحث عن رجولة أخرى... عن فحولة جديدة عن شخص يفتكّها من نفسها افتكاكا، عن إنسان يكون بحجم أحلامها الجامحة التي لا تهبط الأرض... وكانت خديجة تحتار وينقبض صدرها بلا مبرّر كلّما حدّثتها زينب عن الرجل الذي تنْشده... وكانت تتراءى لها من خلال أحاديث ابنتها ملامح كانت قد عرفتْها ودفعت حياتها مهرا لها.

لكنّها كانت تكذّب مخاوفها وتحاول استعادة ثقتها بابنتها، بهذه المرأة المكتملة التي استطاعت أن تقف منتصبة القامة أمام جبروت أبيها... ذاك الرّجل الذي قسم ظهر أمّها وخذل أختَيْهَا وشكّل الدار والعباد كما بدا له... وأفرغ حياة الجميع من البهجة وألق السرور.

إنّها الوحيدة التي قالت له ذات يوم: "يكفي يا أبي، ارفع يدك عنها... إنّها أمّي !"

وكانت خديجة يومها ترتجف من الخوف... كانت تتوقّع أن ينهال عليها ضربا، أن يعنّفها أن يشلّ حركتها بسبب جسارتها... إذ لم يحدث له يوما أن كلّمه أحد بمثل ذلك الحزم. كانت خديجة قد وضعت كفّيها على رأسها تنتظر الزلزال لكنه عكس ما كانت تتوقّعه لم يقل شيئا... كان يهتزُّ من الغضب... لكنّه لم ينطق بكلمة... وكأنّه فجأة قد فقد لسانه... ثم انتابته نوبة من البكاء العنيف أذهلت الجميع...

وكانت خديجة لا تدري ماذا تقول ولا ماذا تفعل. كانت تتوقع كلّ شيء إلاّ أن تراه يبكي ! ... وتذكّرت أنّها المرّة الثانية التي يبكي فيها قاسم، مرّة عندما حرم من رؤية زينب طيلة سنة حتى دخلت عليه غرفة الجلوس التي أجبرته أمّه على الإقامة فيها وحرّمت عليه دخول غرفة نومه ورؤية ابنته الوليدة. وهذه المرّة التي حدّثته فيها حدّيثا لم يتعوّد سماعه من قبل.

مّرتان يبكي فيهما قاسم وفي المَرّتيْن أبْكته ابنته. كانت خديجة ما تزال ترتجف... ولا تدري ماذا تفعل... عندما تقدّمت زينب من قاسم وعانقته في صمت فعانقها بشدّة وهو يطلق العنان لشهقاته المكتومة، كطفل يلوذ بحضن أمّه، واستغربت خديجة لانقلاب الأوضاع... ولم تعد تفهم شيئا... فقد تحوّل زوجها إلى طفل وديع يشكو يتمه لامٍّ هي ابنته، وغدت ابنتها التي لم تعرف معنى الأمومة بعد إلى أمٍّ عرّيفة بحاجات الولد إلى أمّ سخيّة تحضن وتمسح ما ترسّب في النفس من أكدار.

كانت خديجة قد أحست منذ ذلك اليوم أنّ شيئا ما قد تغيّر في طبع قاسم... وكأنّه وجد المرأة الحقيقيّة التي كان فاقدا لها طيلة هذه السنين... كان لابدّ أن تكون هذه المرأة من صلبه لتحظى بمقام الرفعة عنده. فكان يرى فيها الذّكر الذي لم ينجب والمرأة التي لم يعرف. يحدّثها كما يحدّث الرجال من أصحابه ويفخر بأنوثتها كما لم يحدث له أن فعل مع أيّ أنثى كانت.

لم تتحسّن علاقة قاسم بخديجة ولكنّه صرف أذاه عنها نزولا عند رغبة ابنته.

وانصرف اهتمام خديجة عن زوجها... وقد تحوّلت ابنتها إلى ذَكَر البيت، تستشيرها في كلّ صغيرة وكبيرة وتحسّ بالأمان كلّما آبت إلى البيت، ولا يغمض لها جفن مادامت زينب خارجه...

وأخذ قاسم يكتشف في نفسه ينابيع جديدة لحبّ جديد ملأ عليه حياته وكثرت أدعيته لابنته حتى يحفظها الله من صغار الرّجال... فكان كلّما تصوّر ارتباطها الممكن برجل ما... تضاءل حجم الرجال أمام الصورة المتألقة التي رسمها ذهنه نهائيا لابنته.

لم يعد قاسم يهتمّ بخديجة نهائيا، ولم يعد يجد تلك اللذة القديمة في التقاط عثراتها للانهيال عليها تعريضا وتقريعا يصل أحيانا إلى حدّ الاقذاع... وقد قرّر منذ مدّة الانفصال عنها في غرفة نوم أخرى فتحوّلت العلاقة بينهما من المزاوجة بكل ما كان فيها من عناء إلى مجاورة تحت سقف دار واحدة.

لقد بدأت زينب تشعر بأنّ أحوال أبويْها قد استقامت شيئا ما وأنّ طيفا من الإطمئنان بدأ يرفرف علي البيت. لقد بدأت خديجة -رغم تقدّم السنّ- تقبل على الاحتفاء بجسدها فغدت حريصة على الذّهاب إلى الحمام كلّ يوم سبت عندما يكون غاصًّا بالمغتسلات... كانت فيه تغتسل من الوحدة والوحشة التي سكنت عظامها منذ سنين وكان الحمّام يمنحها فرصة أن تتحدّث إلى النساء وأن تتعلّم معهنّ كيف تضحك في انطلاق دون رقيب وأن تدلّل جسدها المكدود الذي لم يدلّله أحد طيلة سنيّ عمرها... كانت تجد لذّة وهي تسند ظهرها إلى الحائط قرب جابية الماء الفائر... وتحسّ بأنّ الحجارة الساخنة تلتقط منها برد السنوات... كلّ السنوات التي مرّت عليها، ثقيلة، كأكياس رمل تحملها على كتفيها. كانت تتحسس شعور اللذة ينساب عبر فقر الظّهر ليشمل كل جسمها المغطّى بفوطة رقيقة من القطن... وكان الجسم يتفجّر عرقا وتنفتح المسامّ لتنفّس عمّا انغلق في النفس ويسري خدر خفيف في المفاصل وتنغلق العينان لحظة في دوامة البخار المتسامق الذي تقتطع الأجساد العارية منه أردية شفافة وتتحوّل بواسطتها إلى كائنات من خيال تروح وتغدو على أديم من غيوم. في هذا المكان بالذّات كانت النساء تتحرّرن من عيون الرجال... فتتحرّكن بعفوية، وتتخلّص كلّ الأجساد الذاهبة والآتية من موانع العالم الخارجي... عالم الرجال.

في هذا المكان المغلق، تتقاسم المغتسلات تاريخهنّ المشترك وتحتفظ كلّ واحدة لنفسها بتاريخها الخاصّ... أجساد متشابهة ومختلفة... فيها الجميل المتناسق وفيها ـ المكتمل بلا جمال، فيها الخشن وفيها الرقيق فيها النضر وفيها المُسِنُّ المترهّل... فيها الناقص وفيها الكامل... توزيع لا عدل للطبيعة فيه...

كانت خديجة وهي تتملّى هذه الأجساد التي تتحرّك أمامها... تحاول أن تتذكّر ماضي جسدها فلا تعثر على ذكرى... لم تكن تحسّ أنّ لها جسدا إلاّ عندما كان يصيبها وجع في مكان ما منه... أو عندما كانت تقوم بعمل ما من أعمال المنزل الشاقّة... كانت تلقي به كالكيس على الفراش ليلا، وتجرّه من ذات الفراش جرّا عندما تستفيق.

أمّا اليوم وحين تتمدّد على الدكانة وتتولاّها "الحـارزة" بدعـك ظهرهـا وأطرافها وتلقي أمامها بأوساخ جلدها ثم تسـكب عليهـا بالسّطل شـلالا مـن الماء الفاتر فإنّها تشعر بجسدها يتخفّف ويتنفّس الصعداء وينبض بإيقاع جديـد، فتلفّه بنسيج من فقاقيع الصابون العطـر والشـمبوان الفوّاح، ثـم تسـكب الميـاه عليها في مقصورتها فتحسّ أنَّ شرايين بدنها قد ارتوت إلى حدود الغبطة...

كانت خديجة قد تعوّدت الحرص على مظهرها، تتعطّـر وتلبـس الجديـد من الثياب... لأنّها تدري أنَّ ذلك يسعد ابنتها، لكن مع مرور الأيّام اكتشـفت في هذه الطقوس الجديدة منبع سعادة وفرح بالنسبة إليها أيضا.

كان قاسم حسان قد لاحظ تغيّر خديجة وكـان يـدرك مقـام زينـب في حياتها، فكان لا يترك فرصة تمرّ دون تنغيص فرحتهـا... فكـان شـديد الحـرص على استمالة ابنته إليه محـاولا افتكاكهـا منهـا. فكـان يطيـل الحديـث معهـا في مواضيع شتّى... تعاليق حـول الأخبـار... آراء في السياسـة... في النـاس... في غرائب الأنباء... في الأسعار... في علاقـات الرجـال بالنسـاء. وكـان الانتظـار يطول بخديجة في غرفتها، وقد أعدّت لابنتها شـرابا سـاخنا ومـأكولات خفيفـة تحبّها, كانت تمضي الوقت تذرع الغرفة ذهابا وإيابا... وابنتها محجوزة في غرفة أبيها يحدّثها وتحدّثه... فتشعر بالغيرة منه على ابنتها ويزداد قلقهـا ولا يـبرح إلاّ عندمـا تطـلّ عليهـا زينـب معتـذرة عـن التأخـير، تقبّـل جبينهـا وتداعبهـا كـي ترضى... وتطول السهرة بهما، يتحدّثـان في كـلّ شـيء ولا شـيء... فيسـكن الأنس الغرفة ويطمئنّ قلب خديجة وتخلـد إلى نـوم هنيـئ. عندهـا تخـرج زينـب لغرفتها لتنام أو تقرأ... أو تكتب... أو لتشرد بخواطرها أمام مرآتها العريضة.

****

فــاصـلـــة

جلست زينب إلى مكتبها. ونظرت في فوضى الأوراق المتراكمـة عليـه، كان بودّها أن تواصل ما شـرعت البارحـة في سـرده... لكـنّ أصابعهـا كـانت متخشبة، وأكوام من الأثقـال كـانت قـد استقرّت علـى صدرهـا وجيـش مـن ذرّات النعاس تحاصرها فتثـاءبت وتمطّـت وهجـس لهـا هـاجس بـأنّ النّـوم هـو الحاجة الوحيدة التي لا يمكن إرجاؤها فابتسمت في مرارة تعتذر : "قصة حب؟! في هذا الزّمن بالذّات أكتب قصـة حـب؟ لِمَـنْ؟ ومـن منّـا مـا زال يفكّـر في أن يحبّ؟ أن يحبّ لوجه اللّه! الحبّ تـرف لم يعـد في متنـاول كـلّ النـاس. لم يعـد هناك وقت. ثم ما الجدوى؟ ما إن يشرع الإنسان في بناء قصة حبّ حتى تندلع حرب تلوها حرب تنتهي بحرب تنسف مـا أقيـم مـن حكايـات الحـبّ القديمـة والجديدة!

أين الجدوى إذن؟

ثم عدّلـت زينـب رأيهـا: "لِيَكُـنْ! ولِمَ لا يكتـب الإنسـان للّلاجـدوى؟ لمجّانية الأشياء؟ للّلاشيء؟ فقط لمتعة صغيرةٍ عابرة، موعودة منذ قيامها للزوال؟

وأغراها التأمل فأغرقت تتابع هواجسها ووجدت نفسها تقـول لنفسـها وقد غاب عنها كلّ يقين "-غريب هذا الحرص المجاني علـى التدويـن؟ وغريـب هذا الإصرار على الفهم رغم الفشل الذريع الذي نمنى به في كلّ محاولة"

ماذا ننتظر من وراء هـذا اللّعـب؟ لعـب بـالأصوات والأجـراس، لعـب بالسياقات والأنساق، لعب بالأشكال والأزمنة، لعب بالأسمـاء والألقـاب. إنـه لعـبٌ بـه لا نصـوغ في الحقيقـة إلاّ خوفنـا ولا نقيـم إلاّ هشاشـتنا أمـام مـا لا نعرف... أمام القوانين العصيّة التي تسوقنا أمام حكمة الواقـع الـتي تنفلـت مـن بين الأصابع كلّما أجهدنا النفس في الإمساك بها.

وأكّدت زينب لنفسها "نكتب فقط وبكلّ بساطة لنقول شكّنا وريبتنا وفي نفس اللحظة نبتدع ألف خدعة لرتق الفتق طلبا لوهم التماسك.

لعلّه حرص للطفل فينا على اللّعب قصد الإدهاش... كي نفتك شهادة حياة بها قد نكون.

أو لعلّه حرص آخر على أن نبني إقامة لنا في عمارة لا من إسمنت وحجارة بل من بسيط الكلم ومنثور العبارة.

لاح على وجه زينب طيف من الإصرار أوقف وسواس الشكّ وأطرد هاجس النعاس الذي كان يزيّن لها مشروع النوم المبكّر.

فوجدت نفسها تفتح أوراقها وهي تتمتم " - لا بدّ لزينب عبد الجبّار أن تتحامل على نفسها، لابدّ أن تستمدّ من الخراب الذي يسكنها القدرة على الحبّ ! لا يمكن لهذا الخواء أن يتواصل ... وأضافت : لكن كيف ؟ كيف ؟

بقيت زينب حسان مدة طويلة تنظر إلى كفّها وهي تمسك بالقلم، والقلم يروم النزول على بياض الصّفحة ولا يتحرّك وكأنّ المسافة بينَهُ وبين الورقة قد تحوّلت إلى فيافي ومفازات تباعد بينه وبين لسان حاله، وأفزعها أن تحسّ يدها غريبة عنها، مستقلّة تماما عن إرادتها وكأنّها انقطعت فجأة عن الإنتماء إلى بقيّة البدن. دققت فيها النظر وهي تتحفز للكتابة ولا تفعل، فبدت لها الأصابع في هيئة إمساكها بالقلم متشنجة، متوتّرة، ثائرة على وضعها الغريب الذي لا يبرّر. خيّل لزينب أنّ لها تقاطيع تتحوّل وتتغيّر تماما كتقاطيع الوجه. فغمرها شعور مفاجئ دفع بها إلى الرثاء لحالها.

تـــمـــــــاسّ

الفصل الرابع

ســـراد لـفـلـول الــذاكـــرة

-II-

كان صلاح قد أزاح السّتائر عن زجاج النوافذ بمكتبه وراح يتثبّتُ من خطوط التصاميم التي شرع في إعدادها. كانت لفافات الأوراق العريضة تحتل كلّ زوايا المكتب وتزحف على بعض المقاعد، ووراء مكتب الرّسم المائل معلقة حائطية للمشروع المعماري الذي قدّمه لحي من أحياء ضواحي العاصمة وقد وقع عليه الاختيار وتمّ انجازه منذ مدّة. كان حيّا عصريا يشتمل على مجموعة من العمارات، ذات الأربع طوابق، ويتخلل البناءات المجاورة، مساحات خضراء مخصصة للعب الأطفال ومراكن للسيارات. كانت زينب عندما زارته في مكتبه أوّل مرّة قد رغبت في زيارة الحيّ الذي صمّمه. فاصطحبها إليه وكان هو نفسه لم يزره منذ أن تمّ انجازه وتسليم المفاتيح إلى أصحابه. فكاد يومها يغمى عليه. لقد طلى أصحاب الشقق جدران الواجهة الخارجية بألوان مختلفة ناشزة تحدد ملكية الحائط، فغدت العمارة كخرقة مرقّعة بألف لون... ووقع تغيير سحنتها بما أضافه المتساكنون من أسيجة حديدية متباينة الاشكال والألوان لضمّ فضاء الشرفة إلى الدّاخل. وكانت حبال الغسيل الملوّن تتدلّى من الشرفات الخلفية وفي بعض الشرفات قصاع الغسيل البلاستيكية وقديم أثاث متروك.... كانت العمارة وهو ينظر إلى هيئتها الجديدة قد عادت ضربا من القبح لا يوصف. كان بودّه لو لم تر زينب ما حلّ بالعمارة التي خطط لها وتابع من حين لآخر مراحل انجازها.

بقي صامتا لمدّة طويلة لا يعرف ماذا يقول لها ثم غمغم في حنق:

- هذا المسخ أنا بريء منه.

فردّت عليه زينب وهي لا تدري إن كان يجب أن تجاريه أو أن تقول رأيها بصراحة فيما يحدث:

- اسمع يا صلاح... في الحقيقة لا أحد برىء ممّا أنت تراه الآن... أنا أفهم غضبك، أفهم حرصك على أن تكون الأشياء مضبوطة وفق التصاميم التي تصورتها... لكن...

وسارع صلاح يقطع حديثها :

- أبدا ... يا زينب... أبدا... أنا لا دخل لي في هذا التشويه إنّه تخريب يتجاوز الخيال، ما جدوى أن نصرف الأموال الطائلة ؟ ما جدوى من عصرنة الأحياء ورغبة تجميل المدن ؟ إذا كان من يسكنها لا يملك حسًّا بالجمال ولا حرصا عليه.

صمتت زينب قليلا حتى لا تقول له: من قال إنَّ الحسّ بالجمال مفقود لدى الناس ؟ ... من قال إنَّ ما رسمته لهم من تصاميم زاوجت إيقاعاتهم وحركاتم اليومية وطبيعة علاقاتهم بالمكان وعلاقاتهم بأجسادهم؟ وذهب بها تفكيرها إلى المدينة العربية اليوم، مدينة تصوغ في انبنائها حيرة أهلها وتذبذبهم وانفصاماتهم : بقايا مدن قديمة تتهاوى، تفتت بفعل الزمن والهجْر والرطوبة ومدن جديدة مستجلبة المثال والمعمار تقام خارج أسوارها، منسوخة نسخا سريعا على منوال المدن الأوروبيّة المزدهرة... أحياء تطلع عليك كالفطر من كلّ جهة تحجب عليك الرّؤية وتصفع المدى... شوارع ومعابر وأرصفة وعمارات شاهقة تئنّ بفعل الضّغط من الدّاخل.

ومَنْ بالدّاخل تضيق نفوسهم، فيتَعَلّقون بحبال الغسيل في الشرفات الضيّقة ويدلقون على إسفلت الشوارع ماء غسيلهم الوسخ. معلّبات آدميّة يشتدّ ضيقها فتنفجر لتلوذ بفوضى البناء وتتمدّد في انبطاح على الأرض.

مدننا المستحدثة ليست حديثة في الواقع بل حادثة، أتلفت جمالية معمارها القديم الذي كان يستمدّ حسّه من الاستجابة الحقيقية لحاجات الناس وتوقهم للذاذة العيش، آخذين في اعتبارهم قوانين تشكيل عمارتهم يساوقون المكان فيتساوق مع إيقاع حياتهم. إنّها قصّة الحبّ الأولى للإنسان مع المكان، تتجدّد صِيغها وهي واحدة دون إكراه ولا إلزام.

شغّل صلاح محرّك السيّارة يريد أن يهرب من هذا المشهد الذي أخجله وأغضبه. وندّت عنه شبه شتيمة :

ـ ليسوا بشرا ـ هؤلاء ليسوا بشرا.

فأجابته زينب وكأنّها تواصل حديثها الدّاخلي :

ـ إنّنا يا صلاح، لم نمتطِ عربة الزمن لننتقل بسلام من عهد البداوة إلى عهد المدنية. لقد انقذفنا في متاهة المعاصرة انقذافا، على ظهورنا أكياس الترحال وفي وجداننا مشاهد الصحراء العربية، نَحِنُّ ـ مازلنا ـ إلى ضرب الخيام في أرض الله الواسعة. وإن ضاقت بنا الأرض نضرب الخيام في المدينة ذاتها بل داخل بناياتها الإسمنتية. خيامنا على ظهورنا ونحن في عقر المدن الجديدة لا ننوي الإقامة وإن أقمنا.

فقاطعها معترضا :

ـ البدوي لا يبقى بدويا طيلة حياته يا زينب خاصّة إذا بدأ يتعرف على أعراف المدينة... عليه أن يتأقلم معها وإلاّ فليبق في حَوْشه...

ولم يعجبْها منه استهجانه للبشر فثارت طبيعتها العصبية ونسيت أن تجامله :

ـ كلنا بدو يا صلاح... بشكل أو بآخر، وعمر مدنيتنا قصير جدّا... أنت نفسك لم تعرف "الشقة" ولا "الفيلاّ" إلاّ منذ وقت قصير... وإيقاع حياتك القديم داخل "الدّار العربي" ليس هو إيقاع حياتك اليوم في الفيلاّ التي تسكنها.

تردّدت في مواصلة خواطرها ثم حزمت أمرها وقالت:

ـ ثمّ إنَّ الإيقاع الداخليّ للبيوت تحدّده النساء وامرأتك أنت فرنسيّة متعوّدة منذ عديد الأجيال على العيش في العمارة التي أنشأها أجدادها هناك وفق حاجاتهم هم وإيقاعات حياتهم الخاصة بهم.

سكت صلاح ولم يجبها... كان يحدس بشكل مبهم أنّها تصفّي حسابا خاصّا معه لا مع المعمار. وأنّ في كلامها كثيرا من التحامل عليه وعلى طبيعة حياته مع "ليليان". كان يحسّ بحقدها المكتوم على هذه المرأة التي كانت تراها

دخيلة قد حدّدت إلى حدّ ما ذوقه وطبعت بشكل من الأشكال رؤيته إلى الأشياء. لكنّه كان يتألّم لأنّ زينب لم تلحظ إلى أيّ حدّ كان هو قد غيّرها وعدّل إيقاع حياتها وفق إيقاع مدينته وحركة أهله وطباعهم.

كان يشفق على "ليليان" من تحامل زينب عليها... لكنّه يعرف أنّه لا يستطيع الدّفاع عنها صراحة... ولا يعرف كيف يفسّر لزينب عجز "ليليان" اليوم عن الانصهار من جديد في مناخ مدينتها الأصلية التي تربّت فيها وشبّت. لقد عادت تذهب إليها سائحة مثله تماما وقد غدت هي التي تضجر منها بسرعة وتستحثّه على العودة إلى بيْتها بتونس.

كان بودّه أن يقول لزينب إنّ من يستحمّ في مياه المتوسّط ومن تسكن الشمس عظامه ومن تعوّد الضياء الفريد الذي حبت به الطّبيعة هذا البلد الصغير، الزاخر بالتنوّع وانبساط العيش... يأسره المكان فيقيم ويعسر عليه بعد ذلك أن يبرح.

لكنّه يدري مسبّقا أنها ترفض أن تفهم فقد لّمحت له مرار بأنّها تكره عقلية السائح الغربي التي تبْقى رثّة وإن طال به المقام... لأنّه لا يرى من الأشياء إلاّ سطحها المخادع.

مازال صلاح يتذكّر لقاءه معها بعد أقلّ من شهر من عودتها المفاجئة إليه، والدخول في صلب حياته بلا مقدّمات ولا تعمّد للتأنّي الشرقيّ المألوف. لقد جالت معه في رحاب منزله الأنيق المتلولب على نفسه كالحلزون البحري، وسْعٌ يفْضي بكَ إلى وِسْعٍ وسلاليم تفضي بك درجاتها القليلة إلى غرف مكنونة مبعثرة هنا وهناك كالأصداف تنغلق على أسرارها. وبياض الجدران الناصع يعانق حرارة الخشب المشغول، الرّاسخ بلونه البنّيّ المهيب في شلالات الضوء المتدفّقة من نوافذ الجدران المبعثرة على شكل خوخات الأبواب العتيقة. واستقرّ بها التجوال إلى الجلوس على الأريكة المنحوتة في الإسمنت... فتمدّدت عليها وقالت له :

ـ تذكرني هذه القاعة بغرف مطماطة المنحوتة في صخر الجبل: وهذه القباب والأقواس بشكل الغرفة المقبّبة التي تصعد إليها من داخل الدّار بسلّم من حجر مصهرج بالجبس ومطلي بالجير. هناك في منازل جربة القديمة.

ثم استقامت في جلستها وسألته : مِنْ أيْن جئت بهذا التصميم الذي اختزل اكثر من حكاية تعاقبت على هذه التربة ؟ ثم أنت ماذا تعرف عن طبيعة الجنوب وعن تاريخ معماره !!!

وأحسّ صلاح من لهجتها المتنمِّرة أنّها سكنت إلى البيت وارتاحت لتصميمه وأنّ عدائيتها المفاجئة ليست موجّهة إليه في الحقيقة بل إلى المرأتين اللتين تسكنانه، كان قد تفطّن إلى غيرتها المجنونة تجاههما.

وكانت زينب في قرارة نفسها تخجل ممّا يخرج من دهاليز نفسها دون إرادة منها. لقد حاول صلاح طمأنتها عديد المرّات، وقال لها إنّه عاد ينام في حضن أمّ عدلت عن أن تكون زوجة لأسباب تخصّها وأنّ "نونوشكا" ابنته يحبّها حبّا عارما ولكن بشكل مغاير لما بينهما... وكان بودّها أن تصدّقه فتطمئنّ فينطَفِيء إذًا ذلك السعير المشتعل في أحشائها. ولكن ما إن كانت ترى ابنته تداعبه وتجلس على ركبتيه وتتعلق برقبته في دلال أنثوي لا تخطئه العين وتتمطط بكامل جسدها وهي تطوّقه بذراعها حتى تنفلت عفاريت الجحيم من رأسها فتأخذها رغبة في كسْر كلّ شيء وفي اقتلاع شعر الصبيَّةِ وتخريب جسمها بأظافرها وأسنانها والانهيال عليْها ضربا مبرّحا حتى تتلاشى هباء منثورا وتتبخّر في الهواء...

وكانت عندما تختلي بنفسها وتستحضر المشهد الذي ينحفر في ذاكرتها يزداد ألمها، فتختلط عليها رغبات في منتهى الغرابة... رغبات دفينة منقذفة من مناطق مجهولة في أن تشجّ رأسها أو أن تقتله هو قتلا موجعا وتخلص هي من عذابها.

كانت لا تفهم رغم كلّ محاولاتها كيف يسمح لنفسه بترديد الكلام الذي كانت تتصوّره حُبسا عليهما فيستعمله في مداعبة إبنته وقد يكون أيضا صالحا للزوجة ـ الأمّ. وكيف يبيح جسده لمعانقة ثلاث نساء، وهو الذي يدّعي

أنها أنثاه الوحيدة، وأنّ عشقه لها ولجسدها عشق فريد لا تشاركها فيه امرأة أخرى ؟؟؟

وتساءلت مرارا وهي على وشك العويل: أتراني قد جننت فعلا؟! أأصبحت أخلط بين قويم الأحوال ومريبها ؟ أم أنّ صلاحا هو الذي اشتبهت عليه الأمور... وتداخلت عنده حدود العواطف والأحاسيس فلم يعد يفقه مع من هو؟ ولا كيف يتصرف مع الواحدة دون الأخرى؟ أتراه أصبح يرانا امرأة واحدة وقد نسي مع الأيام من نحن؟ ومن نكون بالنسبة إليه ؟ ثم تعود لتنتابها الشكوك المدمّرة: وماذا لو كان يدرك جيّدا ما يقوم به، ويمضي الوقت في التمويه عليّ. ماذا لو كان شيطانا ملتبس الرّغبة يتخفّى تحت لباس الإنسيّ الحبيب ؟

كانت زينب وهي تصوغ شكها وريبتها، تكاد تهوي في متاهات عالم آخر، آهل بالجنّ والعفاريب فتصيبها رعدة قابضة كلّما أشرفت عليه. وكان صلاح يتحوّل في رأسها إلى كائن غريب، مفزع تشبه ملامحه ملامح أكلة البشر...

وكانت عندما تتذكّر خلودها إليه ومعانقتها له والنّوم بين أحضانه يصيبها الهلع فتصطك أسنانها فرقا وتسكن مفاصلها برودة الأموات ويبقى نبض القلب وحده يتسارع لاهثا، هاربا ممّا انهال عليه من غريب الصور.

تَماسّ

الفصل الخامس

كان الصباح ربيعيا، تطلّ شمسه من خلال بلور النافذة فتخلق في المكان حياة ودفئا وتوقا إلى الأوساع. كان محمود يحتسي قهوة الصباح، يقلب أوراقه وموسيقى خفيفة تنبعث من جهاز التسجيل... كان جذلا على غير عادته عندما يستفيق صباحا... وقد أحسّ ذلك وعَزاهُ إلى جمال الطقس. دخلت عليه "ناديا" وهي ما تزال تطارد النعاس العالق بأهدابها الشقراء، كانت منامتها من نوع "التي شورت" أبيض اللون، تتوزع على صدره ألوان عديدة متداخلة... قصير يغطّي الأرداف وينزل بعض السنتمترات تحتها... كانت تمشي نحو أبيها في دلال صبيّ في الرابعة من عمره... وضعت مرفقها على كتفه وهي تمسك بين كفيها فنجان القهوة الواسع العميق... ألقت نظرة شاردة على أوراقه... وعابثته.

ـ لماذا لم توقظني معك ؟؟ ...

ـ كنت سأفعل... ولكنني تركتك تستكملين حلمك...

فدفعته بِمِرْفَقِهَا دَفعةً خفيفةً واتجهت نحو النافذة. التفت محمود تجاهها ومرّر نظره على كامل قوامها ثم استدار نحو أوراقه وقد شعر بضغط مفاجئ يعتصر أحشاءه...

وفكر في رَوْعٍ ـ "هل بدأت تحبَ ؟؟ ... هل هناك شخص ما في حياتها؟"

وسرعان ما طرد الفكرة من رأسه لكنّها عادت لتلحّ عليْه وكلّما ألحّت أحسَّ بانقباض شديد في نفسه. ألقى بالقلم وقد تحوّل التركيز على الحروف أنشغالا عنها.

ولتبديد السحابة التي تلبّدت في رأسه سألها :

ـ أمّك خرجت ؟

فأجابته وهي تواصل النّظر من النّافذة

ـ لا، إنّها في البيت... إمّا في غرفة نومها أو في المطبخ كالعـادة... لم أر في حياتي أمّا مثلها... لا تكلّمني، لا تسـأل عنّـي، وإذا لزمـتُ الفـراش بسـبب المـرض تلقـي إليّ بكـلّ الأدويّـة والسّـوائل وصحـون الأكـل... وتنصـرف. لم أحسّها يوما قريبة منّي... إنّها تكرهني...

فسارع محمود إليها... واحتضنها

ـ لا... ليس لك الحقّ في اتهامها هكذا ... إنّها امرأة محطّمـة... مـوت أخيك. – أنتِ ربّما لا تذكرين – قد أخرجها من عقلهـا... وأصابهـا بوجـوم دائم. لقد أصبحت كالآلة تقوم بنفس الحركات يوميًا دون وعي ولا إحساس.

ـ لكنّها قادرة أن تحبّك أنت ...

ـ اسكتي إنّك لا تدرين عن علاقتنا شيئا.

ـ إنّها علاقة عاديّة بين زوج وزوجته.

ـ لا "ناديا" لا ... هي لم تعد زوجتي ولا أنـا زوجهـا ... إنّهـا حوّلتـني إلى بديل عن ابنها... تحيطني بأمومتها وأنا ألعب معها دور الابن... ماذا أفعل؟

ـ وأنا إلى أيّ شيء حوّلني وهمها ؟ ...

ـ لا تحزني ... بابا معك على الدّوام ! ... تعرفين كم أحبّـك... وكـم أخاف عليك ... لا أسمح لأحدٍ أن يمسّك بسوء... أو أن يقترب منك... أنـتِ لبابا وبابا لك وحدك...

ـ إنّها تغار منّي... لا تقل لي عكس ذلك ... لقد طلبت منهـا مـرّة أن تعيرني مريولا من مراويلها... ارتديه للذّهاب إلى عيد ميلاد "منى" ... فقذفتني بنظرة حاقدة وشرعت تفرغ خزانتها وتكـدّس أمـامي كـلّ أدباشـها في عصبيّـة سمّرتني في مكاني...

ثـم قـالت لي " ـ خـذي كـلّ شـيء... أنـتِ وحـدك الأنثى في هـذا البيت...

وخرجت بسرعة جنونيّة. فبقيت واجمة في مكاني... عندمـا تنـاهى إليّ نشيجها. لم آخذ شيئا مما ألقت به في وجهي وقصدت غرفتي وأغلقـت البـاب وبقيت هنالك يوما كاملا. لا أريد أن أراها.

جلس محمود وأجلس ناديا على ركبته ومرّر بأصابعه على شعرها الأشقر المتموّج... وقبّل جبينها وهمس في أذنها :

ـ هوّني عليك... أنت الآن تفهمين... إنّها مريضة لا تنسيْ ذلك...

نظرت ننوشكا في ساعة يدها وانتصبت واقفة

ـ تأخّرت. عليَّ أن ألبس وأخرج... عندي درس.

تابعها محمود وهي تخرج من مكتبه... أحسَّ الآن أنّها كاملة الأنوثة، رشيقة القوام... زاخرة بالنّضارة والحياة... وأُحسَّ بالغيرة عليها من نظرات الرّجال... إنّها المرأة الوحيدة التي تلقاها بين ذراعيه منذ انقذافها إلى الحياة... يعرف أدقّ تفاصيلها... رآها تكبر لحظة بلحظة عاشر طفولتها ورآها تتحوّل رويدا رويدا إلى الأنثى البهيجة التي هي الآن... فكيف يدفع بها إلى أيّ جلف يقاسمه حبّها... تدافعت هواجسه وتلاطمت في السرّ مخاوفه فقام يغيّر الشريط علّ الموسيقى تهدّئ شيئا ما أعصابه التي أحسّها آخذة في التوتّر أكثر فأكثر...

رنَّ جرس الهاتف فأسرع إليه وكأنّه الغوث الذي كان يرجو.

ـ زينب! أينك كلّ هذه المدّة ؟.

- ...

ـ شغلتني عليك ...

- ...

ـ طيّب ... لا مانع... ألبس وأخرج...

وأعاد السمّاعة.

التقط سترته وهرع إلى بيت الحمّام، يسوّي بعض التفاصيل وخرج مسرعا فاصطدم بمونيك زوجته وهي تنشف يديها :

- Qu'est ce que tu veux manger à midi ?
- Ce que tu veux
- Du poisson ?
- O.K. du poisson .... ciao

كانت زينب حسّان واقفة بمحطّة "ت.ج.م." تُسند ظهرهـا إلى حـاجز حديديّ واطئ. كانت منشغلة بتسوية شعرها وتحويـل نظاراتهـا المرفوعـة فـوق رأسها وتثبيتها على عينيها. لم يكن الضوء شـديدا والشـمس في أوّل إطلالاتهـا بعد شتاء دام طويلا وسماء متدثرة بسحبها على الـدّوام... لكنّهـا كـانت تحسّ براحة أكبر عندما تختفي وراء نظّاراتها وكأنّها بذلك تحمي نفسـها مـن العيـون الجوّالة الهاتكة لكلّ ستر... كانت زينب تعرف جيّدا عادة أهل المدينة في تعريـة الناس بنظراتهم، خاصة النّساء. فهنّ قادرات في لمحة خاطفة وجانبيّـة أن يقيّمـن الإنسان المارّ أو الواقف أو الجالس بالجملة والتفصيل... ويسـتطعن تخزيـن أدقّ دقائقه وتصريفها بالتدقيق لجارة أو صديقة ولـو بعـد أسـبوع... قـادرات دومـا على "نسل ريـش" أيّ كـان، هكـذا بـلا مـبرّر ولا عـداوة ظـاهرة أو خفيّـة... وقليلا ما تسمعهنّ يطرين على أحد إلا في حـالات الانبهـار القصـوى. يسـكن كلّ واحدة منهنّ حرص شديد يصـل أحيانـا إلى حـدود الهلوسـة في أن تكـون الأحسن والأجمل والأثرى وما عداها لا يعدو أن يكون سوى غبار...

ابتسمت زينب لخواطرها وفكّرت : "في الحقيقة نحن لم نتغـيّر كثـيرا... مازلنا نحمل عقليّة "نساء البيـت" في تركيبـة تفكيرنـا... رغـم تَغَيُّر السـحنات والهيئات والمشاغل. مخضرمات في كـلّ شـيء. في عواطفنـا... في لباسـنا... في تفكيرنا... في هندسة بيوتنا وطرق تأثيثها... في علاقاتنا بأجسادنا وأرواحنا... مشتّتات بين تيّار العصر وبين ما يعشش في الدّاخل من قديم العوائد" نتحرّك في الشوارع مثقلات النفس بصناديق الماضي وحقائب الحاضر...

ما العمل ؟ ... باغتتها السؤال فوجدت نفسها تهزّ كتفيهَـا... وتقـول: "لا أدري... كلّ ما أدريـه هـو أنّـي لا أريـد أن أكـون شـبيهة أمّـي... إنَّ مـا كابدته تلك المرأة يمحو ذنوب كلّ النساء ! أحسّت زينب برعدة لمجـرّد التفكـير في حياة أمّها... فرفعت النظّارات عن عينيها والتفتت إلى جموع النّاس يقطعون تذاكر القطار المسافر إلى الضّاحية الشماليّة... بـين راكـض ومتمهّـل يتدافعـون لاعتلاء مدرج الرّصيف وامتطاء القطار الّذي كان يتهيّأ للانطلاق...

توقفت سيارة "محمود سليمان" أمامها وانفتح لها الباب فارتمت مباشرة إلى جواره. قبّلها وقبّلته وأحكم غلق الباب المجاور لها... وانطلقت السيّارة تطوي الطريق. بَقِيَا صامِتَين... كان ينظر أمامه وكانت تتملّى البحيرة وتتابع حركة النّوارس وهي تعلو في الفضاء ثمّ تعود لملامسة صفحة الماء في حركات رشيقة جذلى بأشعّة الشّمس. وفكّرت: "كلّ الشعر الحديث مغرم بالنوارس"... وتذكّرت ما أسرّ به إليها صديق قديم "النورس جميل في تناسق اجراس الكلمة ولكنّه فظيع في ما عدا ذلك". ثمّ تابع: "إنَّ لي مع النّوارس تجربة غريبة: كنت ألحّ على زوجتي أن تحمل منّي وهي تتمنّع وتختلق الأعذار... كنت حزينا... و لم أطالبها بذلك مرّة أخرى. وحدث أن حملت رغم كلّ احتياطاتها فقرّرت الاجهاض... بكيْت يومها ورجوتها أن تقبل الجنين وتبقيه... فلم ترضَ... واصطحَبْتها للمصحّة وطلبت من "الجينيكو" أن يريني النطفة المقتلعة وإن كانت لا شكل لها ولا حجم... ورأيتها. طلبت من الطبيب أن يُسلّمني نسلي المهدور وحملته وبقيت يوما كاملا في صحبته... وعند غروب الشمس جئت إلى هذه البحيرة وأمسكت بالكيس الذي يحويه وقلت: "إن لم تنجح يا كبدي في أن تكون بشرا سويا فكن على الأقلّ سمكة" وألقيت به في اليمّ... وعدت إلى السيّارة... والتفتت إلى المكان مرّة أخرى فراعني أن أرى سرْبًا من النوارس ينقضّ على فلذة كبدي ويزدردها... منذ ذلك اليوم أصبح بيني وبين النوارس غرم وعداوة".

لم تشعر زينب بوصولهما إلى حلق الوادي إلاّ عندما توقفت السيارة عند سكّة القطار... أحسّت زينب بحرج والصمت بينهما يتكثّف ويثقل فالتفتت نحوه تحاول تبديده قالت :

- الطقس ربيعي اليوم !

واصل صمته وبعد برهة قال:

- زينب دعيك من حديث الطقس !!... تعرفين جيّدا أنَّ الطقس الخارجي لا يهمّنا كثيرا... ثمّ أنت تعرفين جيّدا متى يشرع النّاس في الحديث عن الطقس.

فاجأها الردّ الصارم فقالت :

ـ لا. لم أقصد.

ـ لك حديث معي ولي حديث معك... سوف نأخذ كلّ وقتنا لذلك...

لم تضف زينب شيئا... واستدارت نحو النافذة فمدّ كفّه والتقط كفّها... وضغط عليها قليلا فتملكتها رعدة خفيفة مخدّرة، واخترقت كامل الجسد... واستقرّت في سويداء الأحشاء...

أغمضت عينيْها وألقت برأسها على مسند الرّأس وغرقت في صمت لذيذ تركت فيه لأصابعها المتشابكة مع أصابعه حرية العناق والحديث.

واستغربت كيف أنّه لم يسترع انتباهها عندما كانت طالبة... كانت تحسّ أنّه يحوم حولها وكانت قد جارته أحيانا إرضاء لكبريائها... ولم يتجاوز ـ أي لقاء معه ـ بجرّد تبادل أحاديث حول فنجان قهوة في مقهى من مقاهي العاصمة أو إطراء خجول على تسريحة شعرها أو لون الفستان. كانت آنذاك تميل أكثر إلى صنف آخر من الرّجال تتضافر عندهم الجسارة مع القدرة على الكلام الجميل... كانت لديها رغبة جامحة في الحديث والسّماع والضحك للقطع مع الصمت الذي عاشته مع أبويها. كانت ضحكاتها تفرقع في أيّ مكان فتطرق كلّ الآذان... وكان ذلك يسبب لها بعض الحرج عندما تحسّ أنَّ العيون قد استدارت نحوها في إدانة واضحة.

إنّها تدرك جيّدا أنّ حضارتها تمقت الضحك وأنَّ الضحك يزيل الوقار... وأنَّ الضاحك إمّا أن يكون مجنونا أو أحمق... هذا إذا كان من الذكور طبعا أو أن يكون دعوة صريحة للفساد وتدمير عمارة الأخلاق إن كانت الضاحكة أنثى...

ابتسمت زينب لتلك الأيّام السعيدة وفكّرت: "أكيد أنهم قالوا عنّي ما قالوا." ثم هزّت كتفيها "لا يهمّ ! ... فهم كيفما كان الحال سيقولون!!! حضارة عريقة في فنون القول... مدمنة عليه منذ قرون... فكيف يكون الخلاص ؟ ... أمضى سيف ورثناه عن الأجداد هو اللّسان. وألصق غرض من

أغراض شعرنا القديم بمهجنا هجاء الأحياء ورثاء الموتى. وبين هذا وذاك ينقضي العمر... ونموت حاقدين على من لم يمت حسرة علينا.

قالت لها زميلة يوما : "تعرفين يا زينب أنّ رجالنا مغرمون لا بسلخ جلود النّساء فقط كما هي العادة عندما يلتقون بل بسلخ بعضهم البعض أيضا...

حكى لي زوجي مرّة غريبة من الغرائب: كان يجلس مرّة مع صديقين له عزيزين. كان الودّ يجمع بين ثلاثتهم وكنت قد اتفقت معه ذات مساء على موعد أمام محلّ تجاري فجاءني متأخرا... فغضبت منه وسألته عن سبب تأخّره فذكر لي أنّه كان في المقهى مع صديقيه وحان وقت مغادرته لهما لكنّه لم يشأ أن يكون أوّل أصحابه في الانصراف وبقي ينتظر قيام صديقيه وكذلك فعل الإثنان فطالت الجلسة وقد انتهى الحديث. وطال الصمت. عندها قرّر ثلاثتهم الانصراف في نفس الوقت كل في اتّجاه منزله...

فاستغربتُ ذلك وقلت : لِمَ ؟ هل هو عهد قديم بينكم ؟

- قال : لا

- قلت : إذن ؟

- قال: لأنّ كلّ واحد منّا يخشى أن ينصرف الأوّل ويترك الاثنين معا... فهو يعرف مسبّقا أنهما "سيفرشان حصيرته" وينزعان عنه ثيابه قطعة قطعة ويقدان له وجهه قدّا... فلا يتبقى من آدميّته شيء يذكر...

- قلت : غريب ؟ إلى هذا الحدّ ؟ ... وتدّعي أنّهما صديقان لك؟!!

- قال: نعم انّهما صديقاي... وأحبّهما شديدا وإذا التقيت بأحدهما دون الآخر نشرع سويا دون أن نشعر في سلخ الآخر تماما كما يحدث بينكنّ وبيننا جميعا... إنها متعة العصر.

اخترقت فكرة غريبة رأس زينب وهي تنظر أمامها شاردة عمّا حولها: "ماذا لو كان ابن خلدون قد أخطأ في عَزْيِ نشأة الأمم وازدهارها إلى توفّر "العصبيّة القبليّة" ؟ وماذا لو كان المحرّك الأساسي في الإنسان لتحقيق الفعل هو شدّة "حسد" تتلوها شدّة "طمع" فشدّة "حقد" تنتهي "بالشماته".

كانت تريد أن تسأل محمود رأيه في ذلك ولكنّها خجلت من خواطرها، وخيّرت أن تحتفظ بها لنفسها.

اعتدلت زينب في جلستها واستدارت نحوه... وقد أوقف محرّك السيّارة. أخرج حافظة أوراقه من السترة الملقاة على المقعد الخلفي

ـ انتظريني لحظة سوف أعود...

أنزلت زجاج النافذة تماما وأخرجت رأسها تستنشق رائحة البحر. إنّها تكاد تلامسه من خلال الأزقّة المتفرعة عن ساحة المرسى رغم اختلاطها بروائح المشويات والمقْلِيّات المتسلّلة من مطابخ المطاعم الصغيرة... كانت تحسّ أنّها خرجت لا من العاصمة فقط بل عن حدود البلاد ذاتها. المعمار غير المعمار والنّاس غير النّاس والجغرافيا غير الجغرافيا والتاريخ واحد.

عاد محمود يحمل أكياسا ورقيّة من مأكولات جاهزة وعلب مشروبات، وبعض أشياء أخرى لم تتبيّنها. وضعها على المقعد الخلفي وانطلقت السيّارة بهما نحو مرتفع "سيدي أبي سعيد" وشرعت السيارة عند مدخل القرية الجبليّة تتنطّط في الأنهج الصغيرة الضيّقة وبعدها خرجت من الأزقّة إلى ساحة مبلّطة يطلّ سورها الواطئ على البحر مباشرة...

نزلا من السيّارة... وتباطأت هي عند السور وملأت رئتيها بروائح البحر النفّاذة... ثم دلفت خلفه إلى منزله الصيفيّ. كانت تعشق هذا المنزل العتيق المرمّم. فحجارته تحدثها بلغة مختلفة تماما عن لغة جدران المدينة التي تربّت فيها. كان لها عشق خاصّ للقرى الجبليّة تعرّش بيضاء على امتدادات الخضرة كالجوهر المنثور ترفعها أرضية الأزرق السماوي يترقرق عند أقدامها ويحيلها على زرقة السماء... نفس العبير الذي هنا نفس الضوء لمسته في قرية "هرقلة" المطلّة على مقبرة بحرية رائعة وجهها للبحر، ينفي جمالها فكرة الموت. كانت كلّما دعتها الحاجة إلى الذّهاب إلى الساحل، تعرّج عليها وكأنّها تتزوّد من ضوئها وبياض جدران بيوتها وبلاط أزقتها الناصع.

وسألها ماذا تريد أن تسمع ؟ ... فرجته وهي ترفع ذراعيها... :

أيّ شيء شريطة أن يكون محايدا أرجوك...

خفَض محمود الصوت فانطلقت نوتات "بيانو" هادئة خفيفة تعمَر المكان... وتشيع إحساسا بالأنس. أعدّ محمود الطاولة الصغيرة وقرّبها من النّافذة المفتوحة على زرقة البحر...

ووضع فوقها صحنيْن وأفرغ فيهما قِطَع البيتزا ووضع الكؤوس بجوار علب المشروبات و لم ينس المناديل الورقيّة الّتي ما إن وضعها حتى هبت عليها نسمة البحر فدفعت بها إلى جولة في الهواء. جمعا المناديل وجلسا قبالة بعضهما البعض وعلى جانبهما يمتدّ البحر متلألئا تحت أشعّة الشّمس...

انشغلت زينب بتقطيع البيتزا بينما كان هو يسكب المشروب في كأسها.

كانت "نوتات" البيانو تتشابك مع تكتكات السكاكين والشّوكات في ملامساتها للصحون.

والطبيعة سخيّة بجمال ألوانها وروائحها تـوزّع في سخاء نعمتها على العالمين.

أحسّا وهما يعبئان الروح بعطر الدنيا أن النفْس تتّسع والخاطر ينتعش والبال يرتاح والجسم يفتح كلّ مسامه للشمس، للهواء... لنعمة الحياة الّتي لا تتكرّر...

جلست زينب على الأريكة في استرخاء رضيّ، ووضع محمود رجليه على متكإ الأريكة المقابل وأسند رأسه إلى حجرها وبذراعيه المشبوكتين وراء عنقها سحب وجهها قريبا من وجهه وقبّلها ثمّ خلّصها من مسكته فبقيت تنظر إلى رأسه المستكينة إليها في دعة الأطفال. وغمرتها عاطفة قويّة في احتضانه بكل الحنان الأهوج الذي تملكه. لكنّها لم تقم بأي حركة. كانت تستمع إلى الدّم يفور في شرايينها... وتتابع حبيبات القشعريرة الّتي سرت على كامل جلدتها... فغضّنت الحشا وإلى قلبها يفلت من مكانه ليسقط في أقصى نقطة من البدن.

كانت بها رغبة جامحة إلى ضمّه إليها. لكنّ خدرا سريعا استبدّ بكل أوصالها، وإحساسا بأنّ جيوشا من النّمل تمشي على مساحة ظهرها وتتوزع

على مساحة كامل الجسد. ارتعدت قليلا فالتقط محمود النّداء المبهم واستقام ليحيط ظهرها بذراعه ويضغطها إلى صدره بقوّة. ضغطت باصابعها المتشنّجة على ظهره. تريد أن تنحفر فيه كليّةً وتتخلّص من عظامها لتقرفص في سويداء كيانه... وأحست فجأة أنَّ سيلا من الدّمع يتدفّق من كلّ جسدها ليتجمع في العينين... وفجأة أبعدته عنها وشرعت تبكي... تبكي... وهو أمامها لا يدري ما يفعل أو ما يقول سوى سؤال حائر يردّده ـ "زينب ماذا هناك... ؟ ماذا حدث؟!"

كان كلّ جسمها يهتزّ بفعل الشهقات المخنوقة. كان إحساس غريب موجع يُلازمها، يذكّرها بحتميّة الفقد وهو معها في أوجّ الوجدان. تبكي خروجه من حياتها وهو أقرب إليها من نفسها، تتوقّع انصرافه عنها وهو يغرس أصابعه العشر في ذراعيها إلى حدّ إيلامها وكأنّه يتوقّع دون أن يدري لحظة انسلالها من بين أصابعه، وقد تحوّلت إلى ذَوْبٍ من الوهم لا يصدّق عند المجيء ولا يصدّق عند الذّهاب...

كان بودّها أن تقتلعه من صميم ارتباكاته فتخلْص له وتنفرد به...

لكنّها تعرف كلّ شيء عن حياته، تعرف انه يحتاج أمومة زوجته... وتعرف أنه يهيم بابنته التي لا يرى جمال الدّنيا إلاّ من خلال عينيها ولا يجد للحياة معنى إلاّ في وجودها بقربه فلا فكاك له منها.

كانت زينب تعرف أنّها لن تقبل فكرة التوزيع هذه ولو مططت سماحة صدرها على الآخر...

لقد سبق لهما أن تحدّثا في هذا التوزيع طويلا... واختلفا وبقي كلّ واحد منهما محتفظا بقناعته. لقد حاولا مرارا قطع العلاقة و لم يفلْحا. دَفْع جارف لا يقاوم يدفعهما الواحد إلى حضن الآخر. كلّما قرّرا الفراق...

وكل منهما يظلم الآخر بشروطه المجحفة. ولا خلاص...

كم من مرّة حاول أن يفهم سبب غيرتها المدمّرة من "نادية" ابنته...

وكم مرّة حاولت أن تفهم تعلّقه الغريب بها... لم تكن زينب قد رأت أبدا مثل هذا التعلق بين أب وابنته... وهي التي لم تعش حتى وهم الحنان

المتداول المبذول من طرف الآباء. كانت دوما تقول لتعرّف نفسها في سخريّة مرّة "أنا زينب حسّان مجرّد اسم اصطلاحي لقطرة المقت التي حبا بها أبي رحم أمّي".

مرّر محمود بقفا أصابعه على خدّها يمسح ما تناثر من الدّمع ثم قرّب شفتيه من خدّها يرتشف ملوحته واقتربت أنفاسه من عنقها فدفعته عنها بإصرار، فلم يفهم وعاود مرّة أخرى وقد خالها غاضبة، تتمنّع، فانفلتت من قبضة ذراعيه وابتعدت عنه، فأحسّ رجولته تترنّح وأصابه تبلّد مفاجئ، وفَارَ دَمُ الحنق في شرايينه وأحسّ جبينه يتصبّب عرقا من الدّاخل...

خطا خطوات نحو الأريكة وتهالك عليها ثم تمدّد وأغمض عيْنيْه ليغيّب المشهد.

كانت زينب تقف أمامه صامتة وأخذت في غفلته عنها تتملاّه وتدقق النظر في تفاصيل جسده الممتدّ على الأريكة وأخذت تتابع رسوم عضلاته المرسومة تحت القميص الأزرق الرقيق... فانتابتها رعشة سَرَتْ في كلّ مفاصلها واخترقت رأسها خاطرة سيّارة فازداد ارتباكها، فاقتربت منه بتصميم وجلست حذوه – لكنه كان كالغائب عنها تماما. فامتدت أصابعها إلى أعلى قميصه وفتحت الأزرار العلوية... وقبّلت موقع القلب منه.

لم يعد محمود يتذكّر جيّدا ما الذي حدث له في تلك الأثناء واختلطت عليه وقائع أحلامه واليقظة، كان قد رأى وجهها يتوهّج بشكل غريب لم يعهده فيها من قبل.

ورأى وجه أمّه الذي لا يذكره جيّدا قد غار في رأسها فلم يعد يرَ منه أي شيء وكأنه استدار إلى القفا.

أراد أن يمسك به لكنَّ الرؤيا تبدّدت سريعا ورأى زينب تضع حقيبتها تحت إبطها وتنظر إليه وتمعن النظر في جوف حدقتيه... وتمنعه بذلك عن أيّ حركة... كان يعرف أنها الآن قد وضعته وخلصت منه، وأنّها لن ترضى أبدا أن تكون أمًّا له ولا مرضعة وأنّها أعادت إلى ذاكرته واقعة ميلاده الأوّل.

وعاد إلى حلقه طعم مرارة اليتم الأوّل. أراد أن يعول ليستبْقِيَها في حياته، لكنّه كان يعرف أنّها دخلت إلى سويداء الرّوح في تصميم يجهل أسبابه وهي الآن تخرج من بيته بذات التصميم المجهول.

أغلقت الباب خلفها دون أن تلتفت مرّة أخيرة ـ كانت القرية الجبلية تستحمّ في ضوئها الفريد، وباعة العطور الأثرية يقرفصون على عتبات محلاّتهم يتهجّون سير المارّة ويتطلّعون إلى السحنات الثرثارة، يواصلون معها حديثا صامتا مسترسلا لم ينقطع أبدا.

كانت زينب وهي تعوج مع الأزقة الضيقة والممرّات المتثنيّة، تسترجع القرية شبرا شبرا وتستبقي في الصدر عبق الأرض وأريج البحر والياسمين الذي يتضوّع في أجوائها، ويفصلها شيئا فشيئا عن حكايتها الحميمة... وتعد نفسها بالعودة إليها مرّة أخرى وأخرى وقد تحرّرت من أحمال القلب والذّاكرة... وهمْنت وهي تنزل درجات السلّم الإسمنتيّ العريض: "هذا الجبل لا يخذل عشاقه... لكنّه "كَكَارْمنْ" إذا ما تعلّق هو بك يشهر سحره في وجهك ويقول لك "هاك برّي وبحري وسمائي... فاحذر على نفسك منّي !".

تـــمـــــــاسّ

الفصل السادس

سراد لفلول الذّاكرة

-III-

كانت زينب عبد الجبّار تمسك بكفّ ديجة الصفراء الزعفرانيّة المتيبسة، وقد غادرتها العروق و لم تعد العين تجد لها أثرا رغم شفافية الجلد اليابس المتغضّن... كانت ديجة تفتح عينيها من حين لآخر... ترمقها من خلال زجاج مائع يترقرق في العين ولا يبرحها، ثم تعود لتغمضهما وقد استوت عندها صورة الأشياء... كان هناك دافع ما خفيّ، يسحب الحواس إلى الدّاخل فتكفّ هذه عن التقاط ذبذبات العالم الخارجيّ حولها... كانت فقط أصابعها بين يدي زينب ترتعش من حين لآخر... تعلن عن بقية حضور بدأ ينسحب شيئا فشيئا...

وجعلت زينب تنفخ في تلك الكفّ وتفرك أصابعها تريد أن تعيرها من وهجها حياة ومن حرارة جسمها قبسا يحقن الجسم الملقى في تسليم على السّرير.

وضعت زينب كفها الأخرى على جبين ديجة العريض... لأوّل مرّة تضع كفها على جبين أمّها ! وقتها قدّرت عمق الأخاديد المحفورة فيها فأمسكت بخصلات الشعر المبعثرة وسحبتها إلى الخلف وامعنت في التملي. عندها خيل إليها - وقد غامت الثوابت في لحظة - انها أمام وجه آخر، لا تعرفه وكأنّها تراه لأوّل مرّة، بباقات التجاعيد الكثيفة حول العينين وانخفارات الخدّ ونتوء الوجنتين... وسقوط الذقن السفلي... وكأنّه فقد البراغي التي كانت تشدّه إلى أعلى... كان الفم مفتوحا في استرسال لا يروم انغلاقا متشقق الشفتين وقد زحفت الأسنان إلى الأمام نازحة عن منابتها. ولا قدرة على غلق الفم الفاغر الملفوح بوهج النَّفَس الذي يتردّد بين الدّخول والخروج.

كانت زينب تحيط رأس ديجة بذراعها وتسوّي جوانب الغطاء لتحفظ لهذا الجسم المسجى بقية حرارة تشهد له بالحياة.

كانت تنظر إلى مساحة هذا الجسد الذي تقلّص إلى أبعد ممّا يمكن أن يتصوّره العارف به. وكأنّه يروم العودة من حيث جاء فيمنعه امتداد العظم وكثرته.

كانت ديجة قلعة طويلة عريضة سميكة الجدران تحتمي بها زينب من كلّ مخاوف الحياة وإرباكاتها يكفي أن تراها تذهب وتجيء وسط البيت لتشعر بالأمان، فيخيل إليها أنَّ العالم ولو تحوّل إلى غول أهوج فانه لا يقدر أن ينال من أمنها.

لم تنس زينب كيف عاشت طفولتها كلها مسنودة الرأس إلى حجر ديجة الدّافئ الوسيع... تخلل شعرها أصابعُ رحيمة تبتهج لها شعاب الرّأس من الدّاخل وتضيئ ما اربدّ فيه من الهواجس فتندفع الأحلام تمرح معربدة بلا قيد. تشكّل الدّنيا بساتين ورد وريحان وعنبر... هكذا دون لجوء إلى الزرع والسقي وطول الانتظار.

وتمتمت زينب وهي منصبّة على ما تبقى من تلك الواحة الظليلة: لا يمكن أن تكون هذه أمّي ! ... لا أصدّق ! ... ثم أبعدت جذعها قليلا لتعدّل الرؤية علّها تكتشف الخلل في عيْنيْها لا في ما تريانه.

ثم خامرتها للحظة فكرة غريبة بدت لها في حينها معقولة جدّا. وهي أن يكون الأطباء في غرفة الانعاش بالمستشفى قد خلطوا بين الملفّات وأثبتوا على السرير اسم والدتها بينما المسمّى لا علاقة له بالاسم... وذهبت في تثبيت الفكرة في رأسها بالرجوع إلى حالات اختلاط الرضع في المستشفيات... فما الفرق إذن ؟ ... وغرفة الانعاش داخلها مفقود، والخارج منها مولود... يتلقفه الأهل وكأنه انقذف توّا من الدّهليز المبهم الذي يسبق الولادة أو يعقبها بعد سنين.

وتساءلت زينب مرّة أخرى : وما الفرق ؟ أليس هذا الذي يرقد أمامها جسم رضيع هشّ لا حول له ولا قوة. يقتات غصبا بأيادي الآخرين ويشرب،

غصبا فيسيل المشروب على الذقن وعلى جانبي الفم. فيبلّل الثوب على الصدر...؟ ما الفرق؟ وهو الذي لا حيلة له في ما يدخل الجسم وما يخرج منه... أعزل، أجرد إلاّ من نفس يتردّد واهنا وصوت خفيض يوقّع كظيم وجع يمخر حشايا البدن الممتهن... ما الفرق ؟ وهذا الوجه يعود إلى ساعات هشاشته الأولى، يلبس براءته ويغادر ما تبقّى من صغير الذنوب؟؟

كانت ماتزال منغرسة في تهجيَةِ هذا الجسد المكدود الذي أغرب في التحوّل إلى حدود يُفقد معها الرّشد.

أحسّت زينب وهي تتفرّس في غرابة هذا الجسد بدفقْات كالحمم موجعة تداهمها من الدّاخل من كلّ صوب وتستقرّ في سويداء الرّوح، فينفجر الصدر وينطلق الألم شريط عويل طويل، مديد، يطوي المراحل والمسافات يصوغ تفاصيل الطينة المهدورة منذ القدم.

تذكّرت زينب بلا مناسبة ما يقوله الناس عن علاقة الأم بابنتها "الطُّفْلَةُ ضَرَّةُ أُمّهَا".

وهزّت رأسها في سخرية عندما اندلقت عليها صور الماضي دفعة واحدة:

ووجدت نفسها تقول لتنفي التهمة عنها : "أنا غريمة أمّي" ! غريمتها في ماذا ؟ وفي منْ ؟ في أبي الذي هجرها في المضجع عندما ولدتْني ؟! أنثى ثالثة ! أو "رزيّة ثالثة" كما كان يحلو له أن يعرّفني وأنا صغيرة أتعثّر في خَطْوِي وأتعلّق برجله فينفضني عنه لأقع على الأرض فيُوجعني الارتطام فأبكي ثم أضحك ويصوّر لي وهمي الطفولي أنه يمازحني، فأستقيم وأقفو أثره. فاتحة الذراعين، أكاد أقع على وجهي من فرط تعلّقي به ! فينصرف!. وتلتقطني أمّي ! ....

غريمة أمّي ؟! فيم ؟ هل يمكن لهذه المرأة أن تحسد على شيء ؟ هل يمكن لهذا الجسد المنهوك، الموشوم بجراحاته أن يُغَار منه وهو الذي لم يعرف مرّة معنى للضمّ والألفة والعشرة الحميمة ! جسد سُرقت منه طفولته وأخرست فيه أنوثته وعمّر في أحشائه منيّ سرطانيّ كنت له أنا الشكل والرائحة والمذاق.

غيّرت زينب من جلستها وقد أحست أنَّ كلّ مرارة السنين قد تسربت إلى أقصى الحلق وتوزّعت على مساحة كبرى من اللّسان.

فتحت ديجة عينيْها المزجّجتيْن وحدّقت في وجه ابنتها تحاول الابتسام فيخذلها الشَّدق السُّفلي فتتحوّل البسمة إلى تكشيرة وجع، تنْفي عن الوجه ما به يكون. ضغطت زينب على أصابع ديجة فأومأت إليها بإشارة خفيفة تريد منها أن تغيّر لها من وضعها فأحاطتها بذراعها ووضعت مجموعة وسائد خلف ظهرها. جالت ديجة بنظراتها الخفيظة تجوب أرجاء الغرفة وتتوقف عند الباب الموارب...

كانت زينب تتابع كلّ خلجة من خلجاتها وتسألها عما تريد؟؟ فلا تجيب فتغيّر صيغ السؤال، عندما وصل إليها صوتها المتهدّج الواهن يسألها:

ـ طلّش عليّ ؟ في الدّار وإلاّ خرج ؟

كانت زينب تلتقط الكلام ولا تفهم. وكأنها بشكل من الأشكال لا تريد أن تفهم. لقد حدست ـ بعد لحظة تَعَطّل فيها الإدراك ـ أنّها تطلب عبد الجبّار زوجها "مُولَى بيتْهَا" كما كانت تقول.

صمتت زينب... وكانت تريد أن تقول لأمّها بقوّة العتب الذي يترقرق داخلها: "غريب أمرك ! أمازلت تسألين عنه ؟ بعد كلّ هذا العمر المهدور تسألين عنه ؟ بعد كلّ ما فعل معك تسألين عنه ؟ أليس في هذا الجسد ذرّة من الغضب تحفظينها له كأضعف إيمان ؟؟ ألم يرحّلك عن الدنيا زحفا على الركبتين ؟! ... ألم يَسُقْك إلى حتفك بضراوة الفاقِد للحسّ الآدميّ ؟ ... ما معنى أن تَسْألي عنه في هذه اللحظة بالذّات وهو الذي لم يزرك ولو مرّة واحدة ولم يسألني عن أحوالك ولو كذبا؟ أوَ تكونين قد..... لا يعقل! لا يُمكن ! ... ماذا يا أمّي ؟ أوَ تحبّينَهُ ؟؟؟!!".

انتفضت زينب وأمسكت بوجه ديجة تريد أن تبحث في النظرة الذاوية عن تكذيب لِمَا نطّ فجأة في رأسها...

لكنّ عيْنيْ ديجة بقيتا معلقتين بالباب المـوارب، وكـأنّها تنتظر – بما تبقى عندها من توق – أن ينفتح الباب فجأة فتراه، فيمسح بوقفته عند رأسها كلّ مرارات السنين التي عاشتها معه.

لم تعد زينب تدري ما الذي يجب عليها أن تفعل وقد تصدّع رأسها فجأة وهي لا تنفكّ تديره يمينا وشمالا، تمحو بالحركات الخفيفة ما يلقي به التصوّر أمامها. كان بودّها أن تضرب برأسها على الحائط فينفطر دفعة واحدة، فتتخلص منه ومن أوجاع الظنّ والتخمين.

لكنّها لم تقل لها شيئا، واكتفت بتغطية كتفيْها.

أغْمضت ديجة عينيْها، وكأنّها أحسَّت أنها باحت بما أمضت العمر تخفيه وتستره عن فَهم أقرب الناس إليها، وأومأت إلى ابنتها تطلب جرعة ماء، وكأنها تعتذر، وكأنّها تريد من الماء المنسكب في حلقها أن يمسح ما خرج منه من بوح بفعل الغيْبة وتساقط الموانع.

*****

قالت لها الطبيبة بعد العمليّة الجراحيّة وهي تسأل وتتوسّلُ وتلحّ في السؤال، "لقد فتحنا البطن وأعدنا إغلاقه... لم نستأصل شيئا، لم نتعرّف على أيّ جهاز في الدّاخل... إن الرحم غدا غابة ... غابة اسفنجيّة... انطمست أشكالها وتعفّنت مجاريها."

وكانت زينب لحظتها قد أصيبت بنوبة من تبلّد الفهم وأحسّت نفسها جاهلة وعاجزة وأميّة وحاقدة على وجه الطبيبة الفاقد لكلّ آدميّة. وهذا اللّسان المنفلت الذي يجلد الصحو بسموم اليقين يواصل الضرب على مسالك الدّماغ. لم تكن زينب تدري وقتها إن كانت تودّ أن تجثو عند قدمي الطبيبة مقابل ان تكذّب هذه الأخيرة ما كانت تقوله منذ لحظة أو إن كانت ترغب في اقتلاع شعرها وركلها وتعنيفها، وافتكاك الملفّ الطبيّ الذي تلوّح به كالقضاء في وجهها، والانهيال عليه تمزيقا، لتذروه في الهواء.

تجاوزتها الطبيبة تاركة إيّاها في حالة شلل كامل. وكانت تصلها من بعيد بقيّة حديث مع الجراحين "Une péritonite - un utérus méconnaissable" . أقعدها الحكم الباتّ وإن لم تتبيّن تفاصيله، وأحست أنّ الناس حولها من مرضى وزائرين وطاقم تمريض مسرطنون جميعا... وأنّ التنين قد كسر قمقمه وعاد يصول ويجول في معابر المستشفى يلعق بألسنته الموبوءة جدران المكان وأسقفه وبلاطه وأسرّته ويحقن النّاس بالموت الوشيك. كان بها رغبة أن تتقيأ أحشاءها وقد غزت أنفها رائحة كريهة... وفكّرت: "أيمكن أن يكون هذا المكان في مدينتي الآمنة الضّاجة، الصافية، العامرة بالحياة... أيمكن أن يكون موجودا على أرض الواقع حقّا ؟

وعادت بها الذاكرة إلى بعض ما قرأته وشاهدته عن حياة الموبوئين في أوائل القرن عندما كانوا يلقون بهم في جزيرة نائيّة يقضون نحبهم هناك في قبر واحد كبير مفتوح على الدّوام.

أحست زينب أن للمستشفى الكئيب شكل الكابوس وطعم الصديد ورائحة الفواجع. وأنّه لا يمكن أن يكون وجوده بأيّة صورة من الصور حقيقيا. هناك حدّ تقف عنده سريالية الأشياء، فإذا ما وقع اجتيازه لا شيء عندها إذاً سوى الفزع والهول.

كانت زينب تدرك في هذه اللحظة بالذات أنّها أمام خيارين اثنين: إمّا أن يغمى عليها إغماءة لا تستفيق منها فيزُولَ وعيها بوحشة العالم حولها نهائيا أو أن تلتقط لها ما تبقى من أعصاب الرجليْن لتقذف بنفسها خارج أعتاب هذه المباءة القاتلة.

لم تعرف زينب من دفع بها إلى الرّصيف وقد خلّفت المستشفى وراءها. كان الشارع أمامها ممتلئا كعادته بحركة السيارات والشاحنات والنّاس على الأرصفة المتقابلة يتسارعون في كل اتّجاه كلّ يشدّه مسعاه وينتظره بيت عامر بالأنس والدفء... كانت تنوي أن تستوقف "تاكسي" لكنّها لم تأنس إلى هذه الفكرة وهي لا تدري بعد إلى أين تريد أن تذهب... كانت ساحة "باب سعدون" كلّها توحي بالبرودة وتصيب البدن بالقشعريرة المميتة التي تنفذ إلى

العظام وتقيم فيها. وهذا الباب العتيق قائم أمامها في وحدة وقد هجرته جدرانه تداوره الرياح وتخترقه، وتجعل منه ملعبا لها. وهذه السيارات تدور حوله وتطوف بلا انقطاع ولا أحد يدخل منه أو يخرج... تمثال هو لليتم واللاّجدوى.

أحسّت زينب أن بينها وبينه شبها وقرابة لكنّها لم تكن وقتها قادرة على أي سخاء ولا مؤازرة. كانت تحتاج إلى شلالات هادرة من الأصوات والأجساد الحيّة تمشي على الأرصفة، تتلاصق، تتوقف عند معروضات الباعة تبيع وتشتري، تغازل، تسبّ، تحثّ من معها على السير، وتقول بكل بساطة أنا أحيا.

اخترقت زينب الشارع الواسع وانصرفت إلى الطريق المؤدّية إلى أزقة المدينة القديمة كانت وهي تدخل الحي القديم لباب "سيدي عبد السلام". قد أطلقت العنان لحواسّها تلتقط كلّ علامات الحياة وقد تحوّلت الأصوات والألوان والروائح المنبعثة من محلات البيع وعلى الأرصفة ووسط الشارع إلى حفل بهيج يمجّد نعمة أن يكون الحيّ حيًّا هكذا بكلّ تلقائيّة... ومعجزة أن تتجدّد الحياة في كلّ يوم وهي المرشحة للزوال في كلّ لحظة.

كانت وهي تسير على الأرصفة الضيّقة، تسعى بإلحاح لافتكاك شهادة النّاس على أنّ ما عاشته منذ ساعات لم يكن إلاّ كابوسا منسوجا من خيوط نوم مضطرب. كان بودّها أن لا تعود إلى البيْت وهي تدري أنّه عاد الآن قبرا. وكان بودّها أن تبقى المحلات مفتوحة كامل الليل وأن تتواصل حركة الناس في الشوارع... فتبقى الليل كلّه تجوب أنهج المدينة وأزقّتها. لكنّها كانت تدري أن الحركة فيها ستتوقف بعد ساعات قليلة. وتساءلت في حنق "لماذا تغلق المدن أبوابها ليلا ؟ ولماذا تنتفي الحركة فيها ؟ ... وبأي شارع يلوذ المُسهد ؟ ولم تلبس الأحياء العامرة ثوب الوحشة والريبة؟ ... ماذا يفعل من تضيق به غرف البيت وتنطبق عليه السماوات والأرض ؟ ... إلى أيّ مكان يذهب ؟ بأي حيّ يلوذ ؟ ومع من يقتسم غربة ليْله ؟ ومن أيْن يستمدّ الشعور بالأمان ليتحامل

على انحرافات وجدانه؟ ويقوى على ترميم ما تهاوى من نفسه حتى ينهض من جديد ليستقبل فجرا آخر لا يعد بشيء.

****

فكّرت زينب وهي تضرب في الأزقة المفضية إلى أزقة أخرى أن تذهب إلى صلاح... أن تندسّ في حضنه، أن تبكي كلّ أوجاعها بين ذراعيه أن ينفي بحرارة جسمه كل سمات الموت والوحشة التي سكنتها. كانت تودّ أن تقول له يتمها كلّه في هذه اللحظة بالذّات فيدثرها بسيْل من الحنان الجارف كما لم تعهده في حياتها، ويقيها توقف النّبض وتعطل الحسّ. لكنها كانت تدري أنّه الآن ينام في حضن الزوجة - الأمّ وغدا يستفيق ليحضن الابنة - الحبيبة. وأنّها لا تعدو أن تكون سوى حضن ثالث زائد عن الضرورة الملحة قد يُمْتع ولكنّه لا يؤنس ولا يُطَمْئِنُ ولا يربّت على الكتف.

تمــــــــــــاسّ

الفصل السابع

-IV-

لم تنم ديجة ليلتها و لم تتوقف عن الأنين الذي أصبح لـه ايقـاع متقطّع رتيب يأتي على ما تبقّى من أعصاب السّمع والاحتمال. وفكّرت زينب: هناك درجة من الألم المجّاني تعود بالإنسان إلى أزمان التوحّش والهمجيّة. يفقـد معهـا كلّ ما سنته له الحضارة من سلوك وأرهفته من حسّ منذ آلاف الأجيال....

كانت زينب عبد الجبّار وهي ترى هذا العذاب الذي لا طائل من ورائه، تأخذها رغبة في مدّ عنقها وإرسال صرخة مديدة تصل مشارف السماوات السبع، فتتفتت لها وتتهاوى بأثقالها على الأرض تسحقها سحقا حتى لا يبقى هناك أثر لهذه البشريّة الحاملة في صميم نشأتها دودة الألم بلا مبرّر. لقد التهم هذا العبث المسترسل الحكمة التي يستند إليها عقل الإنسان ليفهم... فقط ليفهم...

وتحركت أصابع ديجة الواهنة تتبع أوجاعها بدءًا من الحشا وكأنّه الوجع قد تحوّل إلى حيوان قارض ينطّ في كلّ اتجاه، يفك الأربطة ويحزّ في اللحْم والأمعاء. وفي كلّ قفزة يقوم بها يتلوى البدن وتتجمّع صرختـه على الوجـه في تكشيرة غريبة مطلّة من عالم آخر لا عهد للبشريّة به. استقرّت الأصابع المتيبّسة عند حدود الكبد. وشرعت حركتها تتسارع وقد جحظت العينان بما عليهما من دمع واهن متجمّد... يعنّ له أن ينحدر ولا يفعل.

أصاب زينب الهلع ولم تعد تعرف ما الذي بوسعها أن تصنعه لها لاسعاف الروح في ارتطامها الذي لا ينتهي بالعظام. حسرت الثوب في حركة يائسة عن صدرها وسكبت في راحة يدها قليلا من ماء الزهر ومسحت به على كامل صدر أمّها وقد أحسّت به تحت أصابعها يتحوّل إلى قفص ناتئ الضّلع، ينسحب عليه جلد رقيق وشفاف يابس وقد فرّت منه الشرايين تماما...

لقد لاحظت زينب حيرة الممرّض هذا الصباح عندما بقي يتصارع مع الذراع علّه يمسك بشريان من شرايينه، تحت الجلد الذي كلّما قبض عليه يقفي مشمرا إلى أعلى بينه وبين العظم مسافات فارغة غادرها اللحم وآض منها الماء.

ارتبك الممرّض وقد عادت أصابعه ترتعش وهو يحس بنظرات زينب مركّزة على حركته وأدخل إبرة الحقنة المسكّنة على غير هدى ففاض المحلول على الجلد و لم يرم دخولا لأي مكان. ازداد ارتباكا ونظر في توسّل إلى زينب وقال لها وقد اعيته الحيلة "لا فائدة ! دعوها تستريح !" فصرخت في وجهه وهي تمسك بذراع ديجة: كيف ؟ وهذا الألم الذي يفتتها بلا رحمة!! بلا هدنة!! كيف نوقفه؟ كيف نخفف منه؟ فقال وهو يتراجع إلىباب الغرفة وكأنّه يفرّ من عفريب قفز في وجهه فجأة:

ـ "أطلبوا لها من طبيبها حبّات من المورفين. هذا هو الحلّ الوحيد... الحلّ الوحيد". وتوارى خلف الباب.

****

تحلقت بنات ديجة حولها. و لم تنم زينب ولا نامت أخواتها وأنين الأمّ متواصل ورغبة في السّعال تنتابها فلاتجد لها القوّة لتحقيقها فتتحوّل إلى خشخشة تملأ الصّدر. وتضغط على النّفس... فيصيب زينب إحساس بالاختناق مكانها، فتسعل عوضها وتجذب الهواء إلى رئتيها عوضا عنها... وألمّ بها إحساس بأنّها الآن تحملها في جسدها وتلامس أدقّ خلجاتها كما كانت هي قد حملتها في يوم من الأيّام، فانغلق الرحم بعدها على أوجاعه وأسراره... و لم تنقذف منه حياة أخرى. كانت زينب تعلم أنّ أمّها قد أجهضت عديد المرّات وحدها دون أن يعلم أحد حتى لا تغضب زوجها. فقد صرخ في وجهها مرارا يحذّرها من عاقبة انجاب آخر. لم تحدّثها مرّة عن تفاصيل ذلك لكنّها أشارت إليها إشارات سريعة مقتضبة، وكأنّه شغل من ضمن أشغالها المنزليّة المتعدّدة. وحده الرّحم يدري ما دار بينها وبينه. ووحده حمل أسرارها إلى حدّ التآكل والذوبان...

كانت تكتم أوجاعه كما كتمت نداءاته، حتى انفطر ولفظ كـلّ مـا لم يعد قادرا على حمله ففاض وانفلق على الأحشـاء يطويهـا طيّـا وجعلـت سيوله تتوزّع في كامل الجسد... وهي الآن كما شرح لها الطبيب العاشر ـ تنهـش مـا تبقّى من الكبد.

كانت تسير مع الأفعوان من الدّاخل وتـراه وهـي تـدري أنّهـا مشـلولة القدرة لا تستطيع أن تفعل شيئا...

لمدة أشهر عديدة خلت وهي تدخلها مستشفى وتخرج بها منه، رافضـة لذات التشخيص الذي سقط عليها كالقضاء، مشكّكة في قدرات كلّ الأطبّـاء، منتظرة لمعجزة تكذيبهم. لكنّهـا الآن تعـرف... وتـرى وتتـابع ولا عـزاء. لقـد أصابوا كلّهم في تحديد المرض... وأصيبت هي في أمنها.

كان عبد الجبار في غرفة نومه المجاورة لغرفة ديجة يطارد محطات الإذاعـة فتنبعث الأصوات من حجرته متداخلة بين حديث وأنغام وكأنّ الذي يحدث في الغرفة الأخرى لا يعنيـه البتّـة... أو كأنّـه أراد أن يخـرس الأنـين الـذي اخـترق الحائط واستقرّ في سمعه، فتغلّب عليه بأصوات المذياع. منـذ مـدّة تـترقّب طرقه للباب ووقوفه ولو للحظـة عنـد رأسـها... كـان يعـرف أنّهـا تمـوت يومـا بعـد آخر... ومع ذلك كان يواصل حياتـه بنفـس الإيقـاع... يـأكل... يشـرب... ينام... ويخرج ثم يعود وهكذا...

كانت زينب تتبـادل النظـرات مـع اختيهـا وكلهـنّ مشـحونات بنفـس الحنق والألم القديم.

وعندما بدأ الفجر ينير الدنيا فتحت ديجة عينيها وحملقت في بناتهـا مـن حولها ونظرت إلى الباب ثانية ثم أغمضـت عينيهـا... فهمـت زينـب مقصدهـا فأخذت تعول في الدّاخل عويلا أعمى أصمّ...

عندما أطلّت عليها "رقيّة" في الصّباح الباكر، رفعت الغطاء عن رجليهـا وتحسستهما وابعدت بناتها عنها... وطلبـت منهـنّ تغيـير وجهـة السـرير حتـى يواجه القبلة... لم تفهم زينب عبد الجبار شيئا مما كانت تقوم بـه "رقيّـة" كـان الكأس الذي أذابت فيه المسكّن بين كفّيها فاقـتربت مـن أمّهـا ورفعـت رأسـها

قليلا وسقتها إيّاه فلم يتجاوز الحلق وعاد ليخرج من بين الشّفتين المفتوحتين يتبعه سائل بنّي لم تعرف من أين خرج...

أومأت "رقيّة" للبنات المتحلّقات حول امّهنّ وأشارت إلى أخمص رجليْها وهي تهمس "صبّاط الموت !" ... لكنّ البنات بقين واجمات لا يفهمن من طلاسمها شيئا... فصاحت فيهنّ دون أن تشعر: إيتينني بقليل من العسل وقارورة ماء الورد ! هيّا بسرعة: وتسارعت البنات لإحضار ما طلبت "رقية"، وبقيت زينب عند رأسها شاخصة لا تفهم... ولا تعي مما يقال حولها شيئا - جعلت "رقيّة" تسكب العسل في فم ديجة وتضمّخ بماء الورد رقبتها وقد أمسكت بسبّابتها ترفعها وأخذت تقول الشهادة عوضها... وتطلب منها أن ترددها معها في سرّها.

غابت زينب عن وعيها لساعات لا تحصى وقد امتلأ البيت بالأغراب والأحباب وكثرت الحركة والجلبة وأفاقت والنّاس حول ديجة يطلبون لها الخلاص من الدّنيا وهي لا تخلص منها.

والتفتت "رقيّة" إلى زينب "أمّك روحها قاعدة معلّقة في حدّ. مستنيّة حدّ..." ولم تزد على ذلك وهي تدري تماما مَنْ تقصد فانخرطت زينب في عويل تردّد في حناجر كلّ النّساء....

ومن خلال رداء الدمع الذي غَشَّى عينيْهَا حدّقت في أختيها فلم تفهما سؤالها الصامت.

فاقتربت من أذن أمّها وهمست "أبي سأل عنك هذا الصّباح... لقد بكى عند رأسك وأنت نائمة وطلب منك الغفران" فتمدّد الصوت الجاثم على صدرها كالبلغم الخانق عقبته أنفاس متقطّعة متلاحقة أسلمت بعدها ديجة الرّوح إلى خالقها فارتخى الذّقن السفلي وتأرجح قليلا وكست الوجه راحة خلّصته من التواءات الوجع وبقيت العينان مثبتتين بالسقف.

حرصت النّساء العارفات بالمراسم على إبعاد زينب إلى غرفة أخرى وتعهّدن مع "رقيّة" بالقيام بكل ما يرتضيه الأحياء للميّت. كانت زينب في شبه غيبوبة يصلها لغط النّساء في السّقيفة وترى خيالاتهنّ يمرقن من أمامها في

ذهاب وإياب ونداء وتشاور... ولم تستفق من غيبوبتها إلا عندما احتضنتها "رقيّة" لتدفع بها إلى الغرفة بجوار النّساء الجالسات على الحشايا المحيطة بكامل المكان وقد توسّط القاعة المفروشة جثمان ديجة... فأبت زينب أن تجلس إلى جوار النّساء واقتربت من أمّها ورفعت الغطاء عن وجهها بين استنكار الحاضرات وبكائهنّ.

كان وجه ديجة قد وقع احاطته بمنديل ينطلق من الذقن إلى أعلى الرّأس والعينان مغمضتان قليلا قالت في سرّها "هذا هو وجه أمّي الذي سرقه التنين مني ونكبني بفقدانه سنة كاملة" ووضعت كفّها على جبينها فإذا هي قطعة من البرودة متصلّبة فمرّرت كفّها على صدرها فإذا نفس الشيء قد سكن البدن كلّه... ركّزت بصرها على قسمات الوجه الحبيب الذي غادر الحياة وهو لا يدري عن ابجديّة مباهجها شيئا. وفكّرت "جاءت الحياة طفلة تسأل لماذا ؟ فلم يجبها أحد. وها هي الآن تفارقها وهي طفلة مضروبة في صميم طفولتها ترفع في وجه الدنيا نفس السؤال".

كانت زينب تجلس إلى جنب ديجة تطوّق رأسها بذراعها وحولها جموع من النساء لا تعرفهنّ جالسات ينظرن إليها وبين الحين والحين تتقدّم منها إحداهنّ بمنديل لتغطّي لها شعرها... فتمسك به في غضب وتلقي به بعيدا عنها... فتعيد أخرى التقاط المنديل لتضعه على ركبتيها العاريتين فتفعل به مثلما فعلت من قبل وهي تردُّ على كلمة "غَطِّي ! " بـ "يزيني هي ما غطّات ! ". كانت زينب تحدس ما يجول في خواطر هؤلاء النسوة... المتفرّجات على آلام الآخرين... نساء تستهويهنّ الفرجة وبؤس الآخرين أكثر ممّا يثيرهنّ الأسى وإحساس المؤازرة. الموت أكبر مشهد للفضيحة يقدّم مجّانا ولا يحتاج إلى أيّ استدعاء أو استئذان... فرجة يتأكّد فيها الحيّ من حياته ويستلذّ نبض الدّم يجري في شرايينه وهو يقف أمام مشهد موت الآخرين.

كانت زينب قد تفطّنت رغم سهومها وهي تحسّ العيون تطوّقها من كلّ جانب إلى أنَّ اهتمام النسوة قد تحوّل بسرعة عن جثمان ديجة لينصبّ عليها هي فهي تعلم جيّدا أنّ الحيّ أولى بالاهتمام في تقديرهنّ، لأنّه مازال ينعم

بالريش الذي يكسو هامته وأنّه لا توجد متعة أكبر من نسْله ريشةً بعد أخرى على مهلٍ في انتظار النشوة القصوى، وقد أعياهنّ البحث عنها بلا طائل في مخادعهنّ.

وتوصّلت زينب عبد الجبار إلى أنَّ حالهنَّ هذه هي أدعى إلى الرّثاء منْها إلى النّقمَةِ.

كانت ترفع بصرها إليْهنَّ من حين لآخر، فيحوّلن أبْصارهنَّ عنها ويتشاغلن بأيّ حركة مرتجلة في انتظار أن تغفل عنهنّ قليلا...

****

كان الصمت مخيّما على الغرفة، تقطعه بعض النحنحات أو تمخّط بعض الأنوف، والبرد يقيم في العظام رغم اكتظاظ المكان بالأجساد وحرارة الأبخرة المتصاعدة من الأفواه عبر طبقات الهواء.

عندها طرقت الأسماع جلبة في السّقيفة وأصوات رجاليّة مصحوبة بأصوات اصطفاق الأبواب. وتمكّنت زينب من رؤية جمع من الرّجال في أزياء رمادية فضفاضة يتقدّمهم أبوها في نفس اللّباس يحملون بينهم خشبة السّفر إلى القبر... كانت قد ركّزت بصرها عليهم وقد بدوْا لها كالفزّاعات المخيفة أو كوطاويط الليْل يحملون على وجوههم الممتصّة الصفراء أمارات الموت الحقيقي. ارتعدت فرائص زينب لمرآهم وبحركة سريعة احتضنت جثمان ديجة وحذّرتهم من الاقتراب منها، فتراجعوا قليلا وقد فاجأهم الشرر الذي يتطاير من عينيها الجاحظتين، وبقوا لحظة ينظرون إلى بعضهم البعض حائرين في طريقة ارتجال الخطوة اللاّحقة.

أحس عبد الجبّار بحرج الموقف فتقدّم ليبعد ابنته تيسيرا لمهمّتهم. عندها هبّت زينب كالإعصار في وجهه وقد تجمعت في حلقها كلّ سيول الألم والحقد والمرارة المقيمة منذ سنين في برك نفسها. ودفعته إلى الوراء. لأوّل مرّة تقف زينب أمام هذا الصنم القائم على عكاكيز الجاه القديم، لأوّل مرّة تراه وجها لوجه لأوّل مرّة تفتح عينيها فيه لترى تفاصيل وجهه دون أن تشلّها الرهبة

المعتادة أو أن يخالجها الإحساس الرّهيب بخطيئة المعصية. وتساءلت في نفسها وهي تركز بصرها على وجهه : "ما الذي أخافني منه طيلة الثلاثين سنة التي قضّيتها إلى جانبه ؟ ما الذي كان يسبّب لي الرّهبة والارتباك عندما كنت أمثل بين يديْه ؟ من أيْن جاءه كلّ ذلك النفوذ ؟ وأين تكمن قدرته على إماتة الحسّ وإخراس القلب وإلغاء العقل وخنق الحياة ؟ ...

كانت زينب تنظر إليه وهو يرفل في الرماد وقد احسّت هشاشة ما يغطّيه الجلباب العريض وقالت تجيب نفسها على سابق اسئلتها : "لعلّ ذلك عائد ببساطة إلى حيلة المسافات التي وضعها بيننا وبينه لقد كان يحرص أن لا نتخطّاها حتى لا نعرفه... حتى لا نكتشف أنَّ كلّ ما تخيّلناه لم يكن إلاّ وهما... أمضينا العمر، نرهبه ونخشاه".

كانت الحاضرات شاخصات بأبْصارهنّ في ذهول تجاوز انتظاراتهنّ... فالمشهد قد عاد مثيرا إلى أبعد حدّ... يعد بنشوة عارمة وبأماسي عامرة بالسّرد والأحاديث.

أحسّ عبد الجبار بالحرج وحاول التقدّم بعض الخطوات فصرخت زينب في وجهه :

ـ توقّف ! ها ! أرتحت الآن ؟ ... تفطنت إلى وجودها في منزلك؟ ... لم أرك يوما تسرع إليها بهذا الحرص إلاّ لتلقي بها إلى القبر...

اغتاظ عبد الجبّار وهو يحاول ازاحتها عن طريقه :

ـ احشم.. ريض... صاحب الأمانة وهزّ أمانته !

فأوقفته زينب وهي تكاد تنفجر بسبب تصحّره ولا مبالاته لتسأله في سخرية هي وحدها تعرف شدّة مرارتها: "غريب منك هذا الإقرار المطمئن يا أبي ! ترى صاحب الأمانة فعلا هو الّذي استرجع أمانته ؟ أم أنّك أنت الذي سعيت بكلّ حرص إلى طيّها وقرطستها وَوَسْقِهَا... دون أن يطلب منك شيئا من ذلك ؟

وأخذته رغبة في صفعها لكنّه تراجع وقد بدأ يحسّها تخرج عن مدارها: فنفث في وجهها : أوفيتش ؟...

ولم تسكت زينب، فهي تدرك تمام الإدراك بأنّها لم تتكلّم بعد وأنَّ نهرا من الكلام بدأ يحمل على السدود، يكسرها ويتجمع دفقه في الحلق ويفيض على جنباته.

ـ الآن سأتكلّم يا أبي... الآن سأبدأ ... وأقول ما سكتت عنه تلك التي صمتت طيلة عمرها ولم تقل شيئا ولم تندّ عنها أيّة أنة... أيّة شكوى ... تلك التي عاشت معك ألف غربية غلّفتها بألف حجاب.

فقاطعها عبد الجبّار محاولا إيقاف السيْل : "عاشت ألف مرّة خير م اللي باش تعيشو أنتِ يا عايقة. عاشت شتاها في الكنّ وصيفها في الظلّ."

لم تنتظره وقد اشتدّ ارتعادها بسبب القهر الأخرس :

"أي كنّ يا أبي تتحدّث عنه ؟ كِنُّ البرام فوق الكوانين لا تنزل عنها أبدا... أم كنّ العزلة والوحدة بين جدران هذه الدّار التي لم يعرف الأنس إليها طريقا.

ظِلٌّ يا أبي ؟!! أيّ ظلّ حبوتها به ؟ ظلّ الرّطوبة الذي يعشش في جدران هذا البيت القديم المتآكل. هذا البيت الذي يعمُره السوس وقد خلا من روائح الدفء وأصوات الحناجر تصوغ فرحتها أو أساها؟؟ الرّطوبة فاضت على الجدران ووصلت إلى مفاصلها، فأقعدتها. لكنّك لم تعترف لها لا بحقّ الصحّة ولا بحقّ المرض... كنت لا تنفكّ تطالبها بالوقوف على طلباتك وهي في أوج الحمّى تكزّ على أسنانها ولا تقول شيئا. توقظها من نومها وتدفع بها إلى السّقيفة في عزّ فصول البرد، لتجلب لك شيئا تافها ترى وقتها أنك تحتاجه... وتنقذف المسكينة وهي بين يقظة ونوم دون أن تلقي بشال على كتفيها إلى السّقيفة تحت المطر وريح الشّتاء. كانت لك دوما خادمة طيّعة وطفلة غرّة مسلوبة الإرادة حتى عندما تصرخ في وجهها وقد سمعتك بأذنيّ هاتين تصرخ في وجهها: "ما عادش نحبّ تجيب لي الفروخ... دبّر رأسك كيفاش تعمل..." وكانت المغبونة "تدبّر" رأسها فعلا ـ هل سألتها مرّة كيف "دبّرت رأسها" كيف كانت تسقط النطفة بعد الأخرى ؟؟ أعرف أنَّ ذلك آخر اهتماماتك يا أبي العزيز! اهتماماتك أخرى: أن تأكل جيّدا، أن تلبس

جيّدا، أن تنام جيّدا.. وتمضي بقيّة الوقت مع أولئك الأصحاب الذين أكرههم.

كم وعدت نفسي بتعويدها على الكلام ! ... بالخروج معها خارج جدران هذا القبرحتى تتفرّج على الحياة... ترى النّاس يضحكون... يغنّون، يرقصون ويأكلون "القلاَصْ" في الشارع دون حرج... كنت أريد أن أعلمها كيف تمشي في الشارع ولا تتعثّر... كيف تأكل في الشّارع ولا تخجل... كيف ترى النّاس يتهجون ولا تستغرب... كيف يشتري النّاس للنّاس هدايا... كيف يعانق الحبيب حبيبته وهما يسيران في الأنهج تشع روحاهما بألق القربى في غيبة عن الآخرين...

كنت أريدها أن تحتفظ للحياة بصورتها البهيجة، لأنّها كذلك... ولأنّها لا تعرف أنّها كذلك... لقد سرقت منها حياتها يا أبي وحوّلتها إلى خرقة آدميّة.

لم يطق عبد الجبّار صبرا وصرخ: إِسْكُتْشْ ما أمرّ لسانك !

ـ هو بعض مرارتي الكبرى ! أنا كليّ أرشح بالمرارة والحموضة... خَلٌّ هذا الذي يجري في شراييني وليس دَمًا. أعرف لماذا تريدني أن أسكت... لكن قل لي ماذا جنت هذه المخلوقة منك ومن الدّنيا بأسرها، عندما سكتت ؟ مِتْرَيْن من القماش الأبيض ومترين من التراب ينتظرانها وأنت تحثّ سيرها إليْهما... لتهيل عليها التراب وتنفض كفيك منها.

وصل عبد الجبار إلى حدود بدأ يفقد فيها سيطرته على أعصابه فلوّح بذراعه في وجهها مهدّدا :

ـ اخرج من داري ! ... حرُم عليك اسمي ! ... حرُم عليك رزقي... والنّاس شاهده ! ...

بدأ الحاضرون يتململون ويتهامسون وقد أرتَج عليهم الموقف.

ابتسمت زينب في حزن وطمأنته :

ـ سأخرج ... سأخرج دون أن تطالبني بذلك...

وأجالت بصرها في جدران الغرفة وسقفها ثم واصلت... هل هذه دار يحرص الحيّ على البقاء فيها ؟ إنّ الخارج منها مولود يا أبي... إنّها دار تصيب الحيّ بفيروس الوحشة... أتساءل أحيانا أي معجزة مازالت تمنع جدرانها من السّقوط... لكنّي الآن أعرف أنّ ديجة هي التي كانت معجزتها... فتدبّر أمرك الآن معها... أمّا اسمي فلا أحد يستطيع تجريدي منه... إنّه قانون السلفة والوراثة يا أبي ! انظر جيّدا في وجهي لن تكون لك فرصة أخرى للنظر إليه... هذا أنفي من أنفك، وهذا جبيني من جبينك ألاحظت ذلك؟ هذه الأشياء منّي؟ ... أنا لم أخترها كما ترى... ولكنّها جزء منّي تربّى معي وكبر ماذا أصنع له؟ ... أرجو فقط من كلّ قلبي أن لا تتعدّى أوجه التشابه بيننا هذا الحدّ ... وأحست زينب بدوار بمؤخر رأسها فترنّحت.

أشار عبد الجبار إلى الرجال من حوله لإنهاء الوقفة فتقدّموا نحو الجثمان لحمله... عندها أعولت زينب وأمسكت عبد الجبار من أطراف جلبابه الرماديّ تمنعه من حمل ديجة... **فتمزّق الثّوب وهوى عند قدميه فإذا هو يرتدي جلبابا آخر تحته. اندهشت زينب ثمّ اعملت أظافرها فيه أيضا فتمزّق ليكشف عن جلباب آخر من تحته فأخذتها حمّى تمزيق هذه الجلابيب المتناسلة وعبد الجبار يُصارع بضراوة من أجل الاحتفاظ بألبسته وقد قفز الفزع إلى نظراته وكأنّه يشرف على فضيحة العمر... كان يدور حولها وتدور حوله في دوّامة مريعة، تمسك بالوجه فيسقط الوجه بين كفيها وكأنّه صنع من شمع... وتتعلّق بشعره فيسقط الشعر دفعة واحدة في كفّها... فوراء الوجوه وجوه أخرى وأخرى وأخرى.**

ولمحته لأوّل مرّة وهو يفقد جلابيبه، ووجوهه المستعارة جسما نحيلا، مرتعش الركبتين... يكاد ينكسر من فرط هشاشته... كان وجهه المتبقّي كوجه طفل مذعور فاجأة سؤال لا يحير له جوابا...

وعندما مدّت ذراعها نحوه، تسارع الرجال المجلببون بالرّماد وأحاطوا به يحجبونه عنها، وهي لا تنفكّ عن مداورتهم تبحث عن مكان بينهم تستطيع التسلّل منه إليه لتتعرّف عليه لكنّهم كانوا أشدّاء في إزاحتها وإبعادها عنه.

واعياها الجهد وقد انتصبوا في وجهها كالقلعة فانفجرت تبكي وحاولت أخذهم باللين وتوسّلت إليهم :

ـ أريد فقط أن أتحدّث إليه ؟ هل تتصوّرونني حقًّا قادرة على إيذائه؟ إنّه أبي... لأوّل مرّة أراه كما رأيته اللّحظة ! هل تتصوّرون ذلك؟ لم تعد له سحناتكم... أرجوكم ... ثم أنتم من أنتم ؟ من دعاكم لحمل أمّي ؟ ... وحجب أبي عنّي... أيّة قرابة تربطكم بهما؟ ... هذا منزلنا ... ولكل منزل أسراره وأبواب يخرج النّاس منها مثلما دخلوا... يمكن لكم الآن أن تخرجوا... لم تعد بنا حاجة إليكم... أتفهمون ؟ بورك في سعيكم ... أهل الدار الآن يريدون البقاء وحدهم... ألا تسمعون ؟

كانوا ينظرون إليها في صمت مريب، ولا يتحرّكون...

لملمت زينب جسدها وقد اعيتها الحيل وأحست برعدة شديدة تهزّه هزّا عنيفا... وسمعت أسنانها تصطك فتمتمت: أي برد هذا ؟ ثمّ التفتت إليهم:

ـ ألم تحسّوا بالبرد ؟ ...

فتحت زينب عينيها. كانت النّسوة متحلّقات حولها وهي تنتفض، و"رقيّة" تثقلها بأغطية الصّوف وتقرّب شراب "الطرنجيّة" السّاخن من فمها وهو منطبق لا ينفتح. وحانت منها التفاتة إلى مكان ديجة فلم تجدْها. فأومأت إلى "رقيّة" تسأل عنها.. فأجابتها: "في دار الحقّ يا كبْدي... في دار الحقّ!" وانهمر دمعها.

****

فـــاصــلـــة

ألقت زينب حسان بـالقلم ورفعـت نظّـارات القـراءة، وألقـت بجذعهـا على ظهر الكرسيّ... أعادت قراءة الصفحة الأخيرة فلم تعجبْها... وامتعضت: ليس هذا ما أردت قوله... لقد انفلت "عبد الجبار" من بين أصابعي... لم أكـن أريد له أن يتبخّر في الهواء قبل أن تصفّـي زينـب عبـد الجبّـار حسـابها معـه... كانت تريد أن تتقيّأ كلّ أوجاعها في وجهـه... فـإذا بهـا تنكسـر فجـأة أمامـه بمجـرّد أنّـه فقـد جلبابـه... لم أكـن أريدهـا أن تكـون بهـذا الضعـف وهــذه الرومنطيقيّة المهترئة ولكن ماذا أصنع لها؟ لقد دفعتُهـا إلى الأقـاصي فلـم تندفـع. واختارت أن تتعثّر أمامه وتتلعثم. لكن من سيأخذ بثأر ديجـة إذن ؟ ومـا معنـى أن يبقى الألم المجاني قدرا بشريا محتوما ؟ إنّها الوحيـدة القـادرة علـى محاسبته ! هي وحدها التي تعرفه جيّدا. لكن الإشكال يبقى قائما: إنّها ابنته فـإلى أيّ حـدّ يمكن أن تذهب هذه البنت في محاسـبة الأب؟ ومـاذا تفعـل بهالـة القداسـة الـتي تحيط به منذ القديم؟ ثمّ ماذا يحدث عندما تجرّده منهـا ؟ إنّ الآبـاء يعتـبرون أيّـة تعرية جريمة ... وزينب عبد الجبّـار إذا قـدّر لهـا أن تواصـل التسـاؤل سَتُعدّ في شرعهم مجرمـة في حـقّ المقـدّس. لكـن زينـب في الحقيقـة تريـد أن تحـبّ عبـد الجبّـار... أن تلتقـي بـه... أن تتحـدّث إليـه ويتحـدّث إليهـا بـلا وسـائط ولا حواجز... فهو جزء كبير من حكايتها وهي جزء كبير من حاضره...

اقتربت زينب حسان من النافذة الواطئة التي تطلّ على سقيفة المـنزل... وأخذتها رغبة في تمزيق الأوراق دفعة واحـدة والخـلاص مـن العـذاب الـذي لا أحد ألزمها به. كانت تحسّ أنّ شخوص نصّها مشوّهي الخلقة عديمي المنطـق... تضرب كُلُّهَا في متاهات اللغة دون هدْي. كانت تريدها خلقا سـويا فـإذا هـي تعرج داخل السياق وخارجه... تقفـز علـى الأمكنـة وتعبـث بـالمواقيت... ولا تنطق إلاّ بما يعنّ لها وفق منطق لا يستجيب للمنطق.

وتذكّرت المرّات العديدة التي خالجها فيهـا نفـس الإحسـاس... ونفـس الرغبة في إتلاف الأوراق لتتخفف من أوزارها... لكنّها كـانت كلّمـا أعـادت تصفّح "فلول الذاكرة" تـأجّجت فيهـا حمّـى الحكـي وعـادت إليْهـا شـخوصها تطالبها بحق التحقق بأيّ شكل من الأشكال وكـأنَّ بينهـا وبيْـن تلـك الأبيـات بقيّة قصّة قديمة تريد أن تقال... أن تخرج من صمتها لترفع الالتباس أو لتزيد من الإيغال فيه.

عادت زينب حسّان إلى مقعدها في مصالحة قصيرة مع ركـام الأوراق المشوشة. لا تعرف بماذا سيطالعها بياض الورقة القادم.

****

خرجت زينب عبد الجبار من المنزل الأبويّ يوم أن خرجـت ديجـة منـه إلى القبر. كانت قد حملت ما خـفّ مـن الثيـاب ومـا ثقـل مـن كتـب وأوراق واستقرّت عند إحدى صديقاتها في انتظار أن تجد محلاّ للكراء.

كـانت سـلمى فتـاة رقيقـة... تعرّفـت عليهـا زينـب في السّـنة الأخـيرة للدّراسة وبقيتا باتصـال ببعضهمـا البعـض... كـانت سـلمى تـتردّد علـى بيـت زينب، فنشأت بينها وبين ديجة محبّة عميقة بلا كثير ضجيج ولا جلبة... كانت سلمى تعرف الكثير من أسرار البيت، وتحاول أن لا تغرق مع ديجة وهـي تبثها أحزانها في قتامة المشاعر، فتختلق غريب المواقف والأخبار لتقتلع منهـا ضحكـة أو بسمة على الأقل... فتصرفها عن مألوف أحوالها. وقد عادت ديجة مع الأيّام تنتظرها، تنتظر ضحكها الذي يشيع في البيت البهجة والأنـس وكـانت تكلّـف زينب بدعوتها للغداء أو العشاء أو لأمسية من الأماسي وفي كلّ مرّة تختلق أكلة وتَعِدُّ نوعا من أنواع الحلويات لتدعو سلمى وتأنس بحضورها.

كانت زينب تعرف تعلّق ديجة بسلمى وكانت سعيدة لذلك. لكنّها لم تكن تلحّ على سلمى حتى لا تحرجها. كانت سلمى تسكن شقّة رحبة في عمارة قديمة بباب قرطاجنة مع أبويها المسنّين... وكانت معهما تحتفظ بكلّ طفولتها... فتغنّي وهي تعدّ لهما شايا أو عصيرا أو أيّ شيء آخر... ويعنّ لها أن ترقص على إيقاع أغنية أعجبتها فترقص وقد كانت تعدّ درسا أو ترتب غرفة أو تطهي طعاما...

كانت فتاة مرحة، منشرحة الصّدر... متسامحة وقد زادها تدريسها لمادة الرّسم شغفا بالحياة. وقد كانت زينب عندما تسألها عن سرّ سرورها الدّائم تقول :

- لقد علّمني تلاميذي كيف أبقى طفلة معهم وأنا في الحقيقة - عندي استعداد قديم لأن أبقى كذلك ثم تضيف وهي لا تفتأ تتحرّك:

- ثمّ ماذا يربح الإنسان من الرّشد وسنّ الرّشد ؟ أنا يا عزيزتي قرّرت ألاّ أكون رشيدة فأنا سَلمى وحسبي ذلك ! وتذهب في ضحك صاف يشي بخلوّ النفس من الكدر.

كانت سلمى قد حاولت طويلا أن تصرف زينب عن كثير وساوسها وإغراقها في البحث لفهم دقائق الأشياء لكنّ زينب عالم معقّد الثنايا لا يصرف الهمّ عنه ولا الهمّ عنه ينصرف.

لقد حكت لها يوما عن أستاذة الرّسم الفرنسيّة التي لاحظت أنّ تلميذا من تلامذتها لم يكن يرسم إلاّ باللون الأسود، فشغل هذا الأمر المدرّسة وتحدّثت به إلى زملائها، وأشعرت به إدارة المعهد، ثم قرّرت أن تدعو عالمة نفس الأطفال لتحليل الأسباب والمسبّبات فطالت التحاليل والتحاليل المضادة وكثر الجدل... والطفل لا يدري ما حول رسومه يدور... وشخّصوا المرض... وتصوّروا الولد فاقدا لحنان أمّه أو أنّ له حقدا ما على الحياة... وأنّه مشروع لانتحار قادم وعندما قرّروا دعوة أبويْه لتحسيسهم بالخطر اكتشفوا أنّ العائلة التي ينتمي إليها الطفل عائلة لا مشكل لها سوى أنّها معوزة... وأنّها لم تشتر

لولدها أقلام الزينة فوجد طفلها نفسه مجبرا على الرّسم بقلم الرصاص الذي يملكه.

لقد كانت سلمى تعتقد راسخا أنّ زينب قد أفسدتها الكتب وأنّ الحياة أبسط ممّا هي تتصوّر ولكنّها كانت تحترم اختلافها عنها واستقلالها بعالمها بل وتجد فيه جاذبيّة ما.

****

استقرّت زينب بغرفة أفردتها لها سلمى، فبقيت بها أيّاما، لا تغادرها... إلاّ لقضاء حاجة ملحّة، وتعهّدتها والدة سلمى بالرعاية وكأنّها عليل ألزمه المرض الفراش ولا ينتظر منه إلاّ التماثل للشفاء.

كانت على وسادتها تغفو وتستفيق فزعة، تنظر حولها تتثبت من المكان التي هي فيه... وتتذكّر أنّها ليست في الخلاء الذي يتراءى لها كلّما أغمضت جفنيها... وتتذكّر أنّ في الغرف حولها أناسا تعرفهم، وتعرف محبّتهم لها. وكانت كلّما تذكّرت "ديجة" تأجّج الألم واشتعلت نيرانه في أحشائها... وكانت كلّما تصوّرتها في ظلمة القبر سقط قلبها عند قدميها فتأخذها نوبة هذيان : "ما تزال طفلة... ديجة طفلة ! لا شيء تخاف منه مثل الظلام ! وتصوّرت وحشة المقبرة في هذه الليلة الباردة والممطرة وأمّها فيها وحيدة لا أنيس لها تئن تحت أثقال التراب تهمّ بمناداتها فيتسارع التراب لسدّ الحلق وفتحتيْ الأنف فينقطع النفس فتعود للموت اختناقا...

وتضيق بها النفس ويعاودها الشك من جديد : ماذا لو لم تكن ديجة قد ماتت فعلا... فسارع عبد الجبّار للخلاص منها قبل أن تستفيق من غيبوبتها... وأهال عليها التراب قبل أن تستعيد وعيها فيكون بذلك قد قتلها مرّتين. وكانت تودّ لو تصرخ: لماذا لم يطلّقها إذا كان يكرهها إلى حدّ دفعها إلى الموت دفعا ...؟

ثم تعود لتتساءل : وأنا ؟ أنا ماذا فعلت له؟ ... أيّ مانع كان يمنعه من احتضاني وأنا صغيرة؟ هل كنت سأدنّسه؟ هل كنت سأقتطع من لحمه شيئا؟

ما ضرّه لو كلّمني بحنوّ وأنا صبيّة ومسّح بأصابعه على رأسي؟ هل كان العالم سيتحوّل عن مداره؟ هل كان يراني مخلوقا مشوّها إلى هذا الحدّ؟ وإذا كان الأمر فعلا كذلك، فمن سيغامر ويحبّني عوضه؟ وأيْن سأجد هذا الأب الذي تعبت من البحث عنه بلا طائل. من يقبل أن يعيرني أباه؟ وهل يعار الأب أصلا؟

وتذكّرت صلاح واسترجعت عناقه لابنته وحبّه الجارف لها... فغاص قلبها في تلافيف الأحشاء... وهمست لنفسها : لا. ولا هكذا يكون الحبّ بين الأب وابنته ! ... إنّها أبوّة شيطانيّة لا قدرة لي على فهمها ... وأنا أحتاج أن أفهم لأتمكّن من أنْ أحبّ... واستدركت لنفسها : هذا إذا كنت يوما قادرة على أن أحبّ حقّا.

كان المنزل غارقا في العتمة وكان ضوء خافت يتسلل من تحت باب غرفة عبد الجبّار، اخترقت السقيفة وشقت الظلام وفتحت باب الغرفة وتسلّلت إلى جنب السرير الذي ينام عليه عبد الجبّار... وتفرّست في وجهه طويلا وهو نائم، وأحسّت بالنقمة تتملّكها وهي تراه ينام على سرير فوق الأرض وخديجة تنام على التراب وتلتحف به ولم تدرِ كيف انهالت عليه ضربا وعضًا وهو لا يتحرّك، وكان كلّما أنشبت أظافرها في مكان ما من بدنه التصق اللحم المطّاط كالعجينة بأصابعها فلا تجد لها طريقة للانفصال عنه... ووجدت نفسها كأنّها وهي تحاول التخلّص منه ـ ترفس عجين الطين بيديها وركبتيها... ولكنه طين ليس كالطين وعجين ليس كالعجين، وقد خالطه الدّم وأشياء أخرى...

وفكّت يديها بصعوبة ولم يعد فوق السرير أثر لقاسم وقد تكوّرت الكتلة التي لا شكل لها فوق السرير ثم بدأت تتميّع ثم تسيل على جنبات الفراش وتمتد على جليز الغرفة. أصابها الهلع وسمّرها الخوف فالتصقت بحائط الغرفة بعيدا... فسعى نحوها السائل الغريب وبدأ يعلق برجليها ويصعد، يصعد... فيلصق اليدين بالبدن على شاكلة قماط الوليد... وعندما وصل الرّقبة صرخت بملء فيها: لا ...

كان العرق يتصبّب من جبينها، وهي ترتجف ضامّة ركبتيها إلى ذقنها، عندما دفعت سلمى الباب وأضاءت الغرفة... وجلست إلى جوارها تجفف جبينها وتسكب ماء في الكأس وتناولها إيّاه...

لم تسألها عن شيء... فقط اقتربت منها ووضعت الغطاء على كتفيْها وأحاطتها بذراعها وعدّلت من وضع رأسها وأسندته إلى كتفها. وضمتها إلى صدرها كما تخيلت ديجة تفعل.

تـــمـــــــاسّ

الفصل الأخيـر

كانت اللفافة زاهية الألوان، تتداخل فيها أعراف البنفسج وتتدهور دكنتها تدريجيا نحو التلاشي، تتشرّبها لطخات صفراء تجريدية كأنّها سقطت في لحظة غمرٍ من ريشة مترعة، بسهْوها.

كانت الأربطة الدقيقة صفراء اللون، أنيقة، معقودة عند الزاوية اليمنى على شكل ختم بارز، متداخل الشرائط وقد تهدّلت بعض خيوطه المتعرّجة وامتدّت على كامل مساحة الورق.

فضّ اللفافة في حمّى ارتعاش الأصابع، وأحسّ أنَّ أربطة القلب الوثيقة تتهاوى كخيوط مريول صوفيّ، يُلغي تشكّله الأوّل ويستحيل إلى خطّ أبله متعرّج على نحو باهت، يدعو إلى النحيب.

لم يعد "محمود سليمان" يقوى على الوقوف وقد خذلته ركبتاه وتلاشى إحساسه بحدود جسده وسط الفضاء المحيط به. كان يحدس بشكل مبهم أنَّ أيّ شيء يصله منها هو بمثابة الإعلان عن قطع جزر التواصل المتبقيّة معه.

تهاوى على الأريكة بكامل ثقله.

كان المكان حوله ملتبسا، تسكنه غرابة مفاجئة وكانت النافذة مفتوحة المصراعين في إهمال وأشعّة الشمس الذّواية، الصفراء المريضة تتسرّب إلى ركن قاعة الجلوس بسخاء غير معتاد فتصيب المكان "ببوصفّير" لا شفاء منه، يبدّد كلّ الألوان.

أحسّ محمود بطعم أعقاب السجائر الباردة المبتلّة تقيم بين تجويفة فمه العليا واللّسان والمرارة في أقصى الحلق تستقرّ بلا مبرّر.

انحسرت اللفافة الورقية الصقيلة عن الكتاب الذي مازال يطبق عليه بكلتي يديه فنطّ العنوان صارخا، يتراقص أمامه بحروف متكسّرة تحاكي التعثر الطفلي في تشكيل الحرف أوّل نشأته.

تهجى محمود العنوان وهو لا يفقه له معنى :

[سِرادٌ لـ "فلول الذّاكرة"] "

وتساءل: "ما الأمر ؟ فلول الذاكرة؟ هـذا أنـا ! ديـوان شـعري! ... مـا الذي يحدث ؟ ما العلاقة ؟

كان الغلاف لوحةً سوريالية، تتنافر فيها زوايا رأس شبه آدمي، تتجاذبه ملامح وحشـيّة، وغطـاء الـرأس مرفـوع قليـلا كمـا أغطيّـة الـبرام الـتي توضـع بإهمال، فتتسرّب من بين فراغاتها الأبخرة الحبيسة.

لكنّ أبخرة الرّأس هنا ترفع الغطاء الجمجمي لتحدث فوهات تخرج منها صور مروّعة وخيالات "فانتاسما قورية" غريبة الملامح، عاصفة الإيقاع. والـرّأس كأنّها خارجة لتوّها من قـبر ضـاق بهـا، فـانفلق وتشـقق وبقـي ممسـكا بأنيابـه الضارية بجزء من لحم الحنك المقدود إلى حدود الجبين فيبقي الشدقان مفتوحـين على الخارج في تكشيرة روع مذهل.

ومن زرقة العين الآبقة يتحدّر البحر، نثير زبـد رشـيش بلـون العاصفـة، وأمام السيل الدّافق هياكل آدميّة ترفع عنها أغطية قبورها وتشمّر عـن سيقانها الضامرة في اندفاع بجنـون نحـو وجهـات متضاربـة مقلوبـة الوجـوه إلى الـوراء، يروّعها تحدّر الماء الطّامي الذي يسعى وراءها في تصميم لا يداور ولا يحيد.

ذكرته اللّوحة بمناخات "سلفادور دالي" الصاخبـة العجيبـة وجعـل دون إرادة منه يستعيد لوحاته الواحدة بعد الأخرى في سرعة مذهلة إلى حدّ تداخلت فيه الأشكال والألوان.

كان بصره قـد تـذرّر وبـدأت هبـاءات ضاربـة إلى الصّفـرة تتوالـد مـن قزحيّة عينيه فتصيبه بعشًى أصفر يخالطه قذى.

أغمض عينيه وضغط على جفنيه بكفّه اليسرى حـدّ رؤيـة نجـوم سيارة تتوالد من بعضها البعض ثمّ تنفجر لتهوي منحدرة إلى قاع العتمة.

عاد الى صحوه ليأخذ نفسا عميقا يستعين به على الفهم فإذا الهواء شميم من عرقها وعطرها وجنونها، غاص له القلب وآض النبض فانخفض الضّغـط إلى حدّ الإغماء.

أمسك محمود بقاعدة النافذة الخشبية ثم هوى عليها بملء قبضته وانسلّ الغضب من بين أسنانه كالفحيح "الساقطة ! ولاّت تكلّم فيّ بالنّحو توّة ! حكايتنا دُقازة ولاّت! شهر كامل... وآنا نلوّج عليها ... ما تعرفش اللي هي همّ أزرق في حياتي ! أوتيل آنا عندها !

واستدار في سورة انفعاله إلى داخل الغرفة فانشدّ بصره إلى صورتها على قفا الغلاف تشاكسه بنظرتها الساخرة، المتخابثة تتخفّى - كما عرفها دوما - تحت ظلال الحاجبين الكثيفين.

جذبته مرّة أخرى... فاقترب ليقرّب الكتاب إليه ثانية، نفس الشّعر الأهوج المجعّد في إتقان حبيب، يعرف ملمسه ونعومة تعرّجاته وتماوج ألوانه ورائحة فصوله ومهرجاناته.

مرّر بأصابعه على وجهها وتوقّف عند العنق ثم أخذ يهمس وكأنّه يواصل نصّا من نصوصه المفتوحة:

للِيد العاشقة ذاكرتها !

للأنف

للعين

وللقلب فوق الكلّ عواء

لا يعرف اللّه.

ولا......

برْد اليقين.

فتح محمود الكتاب المطبق بين كفّيه وراح يقرأ الإهداء في الصفحة الأولى.

"إلى أبي

الآن فقط أستطيع أن أراك جيّدا.

أن أقترب منك وقد نَضوْتك عنّي وأنتَ لحمي.

كنت أحتاج المسافةَ بَيْني وبينك لتتقلّص الفراغات وبؤر الصمت الملغوم بيننا، بفعل اليأس وسوء الفهم.

أنت لم تحدس يوما معنى أن تبقى الحاجة إلى عناقك معلقة في دوائر منبعجة تتوالد منها الأصداء القديمة وترتدّ إلى القاع في مكان ما داخل كهف الرّوح الفاغر المهجور.

الآن فقط وقد حملتك كما لم تحملك أنثى من قبل، أتحرّر منك وارّدك إليك كما لم تكن.

ألقى مرّة أخرى بالكتاب على المنضدة الخشبيّة الممتدّة بصلف الصنعة المتقنة وكأنّه كان يمسك بجمرة مستعرة، أكلت مساحة من جوف الكفّين وسرى حريقها في كامل الجسد.

كان يرتجف مما قرأ. لقد أثار نصّ الإهداء حيرته وأحسّ بتسارع دقّات قلبه وهو يسأل ويخاف من الجواب.

"أيّ أب تقصد ؟ كان له إحساس غامض بأنَّ الكلام موجّه إليه، وكان يلمس في تلافيفه إشارات إلى حديث كانت قد قالته له يوما. وردّد في سهوم : "بؤر الصّمت الملغوم بيننا" "أتحرّر منك وأردّك إليك" و"فلول الذاكرة" هذه الجمل يعرفها... يعرفها جيّدا ولكنّه لم يعد يتذكّر بأيّ مناسبة قيلت.

وعاد ليحتار : ولكن لماذا الأب ؟ وما العلاقة بيني وبينه ؟ وما كلّ هذا الخلط ؟

كان يعرف أنَّ للكتابة منطقا آخر، يُجوِّز لها أن تستلف وجها منْ هذا وسحنة من ذاك وحكاية تختلق من مجموع أوهامٍ وأحلام واستيهامات تتقاطع مع نُتَفٍ من حكايات النّاس مع النّاس وحكايات الكُتّاب معها، في نسق قد يوهم بأنّها قد حدثت فعلا بذلك الشكل دون غيره. ولكنّه يدري أيضا أنَّ خلف النصّ يكمن نصّ آخر، يساوق الأوّل ولا يُقرأ إلاّ من طرف صاحبه لأنّه نصّ لا يهم الآخرين.

إلاّ أنّ محمود كان يرفض أن يكون أيّ آخر وكان يعود إلى تعزية نفسه بما أقامته منذ العنوان من علاقة حميمة بين نصّها ونصّه.

التقط الكتاب مرّة أخرى وأصابته حمّى القفز على الفقرات ثمّ العودة إليها للبحث عن إيماءات تعنيه مباشرة.

لم تكن له رغبة في قراءة رسالتها إليه وقد شبكتها مع غلاف الكتاب.

كان يحدس بشكل ما ما يمكن أن تقوله له بعد هذا الغياب: تبريرات واعتذار لانسلاخ وشيك والقلب مهموم لا يقبل العزاء.

خطا بعض الخطوات نحو النافذة ودفع بعنف مصراعيها الخشبيين نحو الخارج تماما ينشد السعة للصدر الذي انطبق عليه وهواء للرئتين.

كان المكان ما زال مشعّاً ببقايا البهرة الصفراء الشديدة للشمس التي غاب قرصها منذ لحظات. وأمامه كان الأفق يمتد إلى حدود السواحل الشمالية للعاصمة كشريط من شفيف الأردية تشعّ ألوانه بألق باهت يختلج عن بعد.

كان الصمت قد عسكر في المكان حوله وشعور الخواء يطبق عليه من كلّ صوب و لم يعرف لحظتها إن كان يرغب في العواء المتضوّر ويلتحق بفصيلة الذئاب المتوحّدة مع وحشتها الصميمية. أو أن يهدّ البيْت على رأسه- فإن صادف ونجا رغم ذلك- يقرفص على ركام الخراب ويتهاوى معه. أو أن يذهب في نحيب طويل مديد كما لم يحدث للرجال أن فعلوا من قبل.

لكن وبسرعة مفاجئة ودون أن يفقه لحركته معنى، التقط محمود سترته الجلديّة الملقاة بإهمال على ظهر الأريكة وخرج كالملسوع إلى الشارع، ينشد الاندساس في أنس النّاس بالنّاس على الأرصفة المبذولة للأقدام الراسخة والأقدام الواهنة والأقدام التي ضيّعت في دوّامات النّفس الأمّارة بالعشق المهدور أبجديّة المشي في الطّرقات العامّة العامرة بالغبار والضجيج.

الـفـــهـــرس

صدر في سلسلة "عيون المعاصرة"

يديرها توفيق بكار

محمود المسعدي
حدث أبو هريرة قال...
تقديم توفيق بكار

عبد القادر بن الشيخ
ونصيبي من الأفق
تقديم حسن الصادق الأسود

البشير خريف
الدقلة في عراجينها
تقديم الطيب صالح

الطيب صالح
موسم الهجرة إلى الشمال
تقديم توفيق بكار

محمد المويلحي
حديث عيسى بن هشام
تقديم محمود طرشونة

علياء التابعي
زهرة الصبار
تقديم هشام الريفي

حنّا مينه
الياطر
تقديم توفيق بكار

محمود درويش
مختارات شعرية
تقديم توفيق بكار

جمال الغيطاني
الزيني بركات
تقديم فيصل دراج

أميل حبيبي
الياطر
تقديم توفيق بكار

فرج الحوار
الموت والبحر والجرذ
تقديم عبد الفتاح ابراهم

فؤاد التكرلي
موعد النار
تقديم توفيق بكار

عزالدين المدني
من حكايات هذا الزمان
تقديم سمير العيادي

جبران خليل جبران
النبي
تقديم ترجمة ثروت عكاشة

محمود المسعدي
السد
تقديم توفيق بكار

عبد الرحمان منيف
شرق المتوسط.
تقديم حسين الواد

الطيب صالح
مريود
تقديم رجاء النقاش

حسن نصر
دار الباشا
تقديم محمد القاضي

م. الفارسي وت. زليلة
الطوفان
تقديم عبد الفتاح ابراهم

يوسف ادريس
مختارات قصصية
تقديم حسين الواد

أدونيس
مختارات شعرية
تقديم عبد الله صولة

عمر بن سالم
عشتاروت
تقديم محمد رضا الكافي

صنع الله ابراهيم
اللجنة
تقديم حسن الصادق الأسود

صلاح الدين بوجاه
النخاس
تقديم منصف الوهايبي

... أنا زينب عبد الجبّار سليلة الغرف الجبلية المعلّقة بين الأرض والسماء، تلك الغرف المفتوحة على الدّهشة الاولى التي لم تزل...

... كان كلّ جسمها يهتزّ بفعل الشهقات المخنوقة. كان إحساس غريب موجع يُلازمها، يذكّرها بحتميّة الفقد وهو معها في أوج الوجدان. تبكي خروجه من حياتها وهو أقرب إليها من نفسها، تتوقّع انصرافه عنها وهو يغرس أصابعه العشر في ذراعيها إلى حدّ إيلامها وكأنّه يتوقّع دون أن يدري لحظة انسلاها من بين أصابعه، وقد تحوّلت الى ذَوْبٍ من الوهم لا يصدّق عند المجيء ولا يصدّق عند الذّهاب...

عروسية النالوتي.

من مواليد 1950 بجزيرة جربة.
أستاذة الأدب العربي.
أنتجت بعض الحصص الثقافية إذاعيا وتلفزيا. لها مشاركات نقدية في الصحف والمجلات التونسية والعربية. صدر لها:
- البعد الخامس، 1975، الدار العربية للكتاب.
- سلسلة "جحا" للأطفال، 1976، الدار العربية للكتاب.
- سلسلة "بسيس" للأطفال، 1982، الشركة التونسية للتوزيع.
- مراتيج، 1985، دار ديميتير للنشر.
- مسرحية "التوبة" عن نص رسالة الغفران للمعري، 1992، دار سندباد



السعر 4.700 د

3N 9973-703-12-X (Coll.)
3N 9973-703-53-7 (n° du volume)